مدينة الزجاج

كامل كيلاني



مَدِينَةُ الزُّجَاجِ

تأليف
كامل كيلاني



مَدِينَةُ الزُّجَاجِ

كامل كيلاني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: أحمد رحمي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٣٩٥ ٧

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

المحتويات

تَمْهِيدٌ

– هَاتِ الْمِنْظَارَ يَا «رَشَادُ»!

– هَاكَ الْمِنْظَارَ يَا أَبَتَاهُ.

وَلَكِنْ أَيُّ فَائِدَةٍ لَكَ مِنْهُ؟ لَعَلَّهُ يُسَاعِدُكَ عَلَى الْقِرَاءَةِ.

– نَعَمْ يَا عَزِيزِيَ الصَّغِيرَ، فَمَا أَسْتَطِيعُ الْقِرَاءَةَ بِدُونِهِ.

لَقَدْ ضَعُفَتْ عَيْنَايَ، وَأَصْبَحَتَا — بَعْدَ أَنْ كَبِرْتُ — عَاجِزَتَيْنِ عَنِ الْقِرَاءَةِ بِغَيْرِ مِنْظَارٍ؛ كَمَا يَعْجِزُ الشَّيْخُ الْهَرِمُ (الطَّاعِنُ فِي السِّنِّ) عَنِ السَّيْرِ — فِي طَرِيقِهِ — إِلَّا إِذَا تَوَكَّأَ عَلَى عَصَاهُ.

– مَا أَعْجَبَ مَا تَقُولُ يَا أَبِي! وَمَا كُنْتُ أَحْسَبُ الزُّجَاجَ نَافِعًا إِلَى هَذَا الْحَدِّ!

– كَيْفَ لَا، وَمِنْهُ يُصْنَعُ الْمِجْهَرُ (الْمِنْظَارُ الْمُكَبِّرُ)، وَالْمِرْقَبُ (الْمِنْظَارُ الْمُقَرِّبُ)؟

– وَهَلْ تَحْتَاجُ إِلَيْهِمَا فِي الْقِرَاءَةِ أَيْضًا؟

– كَلَّا يَا عَزِيزِي، بَلْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِمَا الْعُلَمَاءُ الْبَاحِثُونَ.

فَلَوْلَا الْمِجْهَرُ لَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَرَوا الْآلَافَ الَّتِي لَا تُحْصَى مِنَ الْكَائِنَاتِ الصَّغِيرَةِ، وَالْجَرَاثِيمِ الْمُتَنَاهِيَةِ فِي الدِّقَّةِ.

وَلَوْلَا الْمِرْقَبُ لَعَجَزُوا عَنْ رُؤْيَةِ الْكَوَاكِبِ وَالنُّجُومِ الْبَعِيدَةِ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا دَرْسَهَا، وَتَعَرُّفَ حَقَائِقِهَا وَمِقْدَارِ أَحْجَامِهَا وَمَدَى مَسَافَاتِهَا وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

– مَا أَعْجَبَ شَأْنَ الزُّجَاجِ، فَمَا كَانَ يَخْطُرُ عَلَى بَالِي شَيْءٌ مِمَّا ذَكَرْتَ!

– كَيْفَ، وَهُوَ مِنْ أَنْفَعِ الْمَوَادِّ الَّتِي لَا نَسْتَغْنِي عَنْهَا فِي كُلِّ مَنَاحِي الْحَيَاةِ؟

وَلَوْلَاهُ لَعَجَزَتْ آلاتُ التَّصْوِيرِ عَنِ الْتِقَاطِ الصُّوَرِ، وَلَمَا تَمَكَّنَ الْعُلَمَاءُ مِنَ اخْتِرَاعِ الْبَارُومِتْرِ (مِقْيَاسِ الْجَوِّ)، وَهُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي نَعْرِفُ بِهِ مِقْدَارَ ثِقَلِ الْهَوَاءِ.

وَلَوْلَاهُ لَمَا تَمَكَّنُوا مِنْ صُنْعِ التِّرْمُومِتْرِ (مِيزَانِ الْحَرَارَةِ وَمِقْيَاسِهَا).

وَلَوْلَاهُ — يَا عَزِيزِيَ — لَمَا وُفِّقَ الْمُخْتَرِعُونَ إِلَى صُنْعِ الْآلَاتِ الْكَهْرَبِيَّةِ النَّافِعَةِ.

وَلَوْلَاهُ لَمَا ظَفِرَتِ الدُّورُ وَالْقُصُورُ بِمَا تَزْدَانُ بِهِ مِنَ الْمَرَايَا وَالْمَصَابِيحِ وَالثُّرَيَّا وَالْأَقْدَاحِ وَالْآنِيَةِ الْبَدِيعَةِ الصُّنْعِ، الرَّائِعَةِ النَّقْشِ.

– عَجِيبٌ مَا أَسْمَعُ!

– أَيُّ عَجَبٍ فِي ذَلِكَ؟

وَلَكِنَّهَا عَادَةُ الْإِنْسَانِ، أَلَّا يَفْطَنَ إِلَى قِيمَةِ الشَّيْءِ إِلَّا إِذَا حُرِمَهُ.

فَالصِّحَّةُ لَا يَقْدُرُهَا إِلَّا الْمَرِيضُ الَّذِي سُلِبَ نِعْمَةَ الْعَافِيَةِ.

وَالنَّظَرُ لَا يَقْدُرُهُ إِلَّا الضَّرِيرُ الَّذِي حُرِمَ نِعْمَةَ الْإِبْصَارِ.

وَالسَّمْعُ لَا يَقْدُرُهُ إِلَّا الْأَصَمُّ الَّذِي فَقَدَ حِسَّ الْأُذُنِ.

وَالْبَدْرُ يَفْتَقِدُهُ النَّاسُ (يَطْلُبُونَهُ عِنْدَ غَيْبَتِهِ)، إِذَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِمْ ظَلَامُ اللَّيْلِ.

وَفِي هَذَا يَقُولُ الْقَائِلُ:

«وَفِي اللَّيلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفتَقَدُ الْبَدْرُ.»

– فَكَيْفَ اخْتُرِعَ الزُّجَاجُ يَا أَبِي؟

– ذَلِكَ مَوْضُوعٌ طَوِيلٌ، أَلَّفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ كَثِيرًا مِنَ الْبُحُوثِ الْمُسْتَفِيضَةِ الْمُمْتِعَةِ.

لَمْ يَنْتَهِ الْحِوَارُ، حَتَّى أَدْرَكَ أَبُو «رَشَادٍ» شَغَفَ وَلَدِهِ بِهَذَا الْمَوْضُوعِ الطَّرِيفِ، وَرَغْبَتَهُ فِي الِاسْتِزَادَةِ مِنْهُ.

فَأَسْرَعَ الْوَالِدُ إِلَى مَكْتَبَتِهِ، وَأَخْرَجَ مِنْهَا مُؤَلَّفًا مِنْ أَنْفَسِ الْمُؤَلَّفَاتِ الَّتِي ظَفِرَتْ بِمَوْفُورِ إِعْجَابِهِ — وَهُوَ فِي أَيَّامِ شَبَابِهِ — عُنْوَانُهُ: مَدِينَةُ الزُّجَاجِ.

ثُمَّ قَصَّ خُلَاصَةَ الْكِتَابِ عَلَى وَلَدِهِ، بَعْدَ أَنْ أَضَافَ إِلَيْهَا طَرَائِفَ مِمَّا قَرَأَهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ.

فَامْتَلَأَتْ نَفْسُ الْفَتَى الصَّغِيرِ إِعْجَابًا بِمَا سَمِعَهُ مِنْ صَادِقِ الْحَقَائِقِ، وَبَدِيعِ الْأَخْيِلَةِ.

وَلَمْ يَشَأْ وَالِدُهُ أَنْ يَسْتَأْثِرَ صَغِيرُهُ بِهَذِهِ الْبَدَائِعِ (أَنْ يَنْفَرِدَ بِهَا وَحْدَهُ)، وَرَأَى مِنْ وَاجِبِهِ أَنْ تَشْرَكَهُ — فِي التَّمَتُّعِ بِهَا — أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ وَصَوَاحِبُكَ مِنْ قُرَّاءِ هَذِهِ الْقِصَصِ، لِتَنْعَمُوا بِمَا نَعِمَ بِهِ فَتَاهُ مِنْ طَرَائِفَ وَمُتَعٍ، لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْهَا صَفْحَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ صَفَحَاتِ هَذَا الْكِتَابِ.

كامل كيلاني

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

الْهَدَايَا النَّافِعَةُ

عَادَ التَّاجِرُ «صَفَاءٌ» إِلَى بَلَدِهِ، بَعْدَ رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ اسْتَغْرَقَتْ شَهْرَيْنِ، وَنَعِمَ بِلِقَاءِ أُسْرَتِهِ. وَقَدْ غَمَرَ السُّرُورُ — بِعَوْدَتِهِ — قُلُوبَ وَلَدَيْهِ: «ثَرْوَةَ» وَ«لَيْلَى»، وَابْنَ أُخْتِهِ «مَحْمُودٍ».

وكَانَ «مَحْمُودٌ» قَدْ حَلَّ ضَيْفًا فِي بَيْتِ خَالِهِ مُنْذُ أَيَّامٍ.

وَكَانَتْ «لَيْلَى» — حِينَئِذٍ — طِفْلَةً فِي الثَّامِنَةِ مِنْ عُمْرِهَا، وَأَخُوهَا «ثَرْوَةُ» فِي الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ، أَمَّا ابْنُ عَمَّتِهِمَا «مَحْمُودٌ» فَكَانَ فِي الْعَاشِرَةِ.

وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالُ مِنْ أَكْرَمِ الْأَوْلَادِ، وَأَذْكَاهُمْ، وَأَطْيَبِهِمْ نَفْسًا.

وَكَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ «صَفَاءً» قَلَّمَا يَعُودُ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا وَمَعَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْهَدَايَا النَّافِعَةِ، الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ الْجَمَالِ وَالْفَائِدَةِ، وَكَانُوا جِدَّ مَشْغُوفِينَ بِمَعْرِفَةِ مَا تَخَيَّرَهُ لَهُمْ مِنَ الْهَدَايَا فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، وَبَعْدَ لَحَظَاتٍ قَلِيلَةٍ — نَعِمَ فِيهَا «صَفَاءٌ» بِالرَّاحَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ — فَتَحَ صُنْدُوقًا جَمِيلَ الشَّكْلِ مَكْتُوبًا عَلَيْهِ بِحُرُوفٍ كَبِيرَةٍ: «سَرِيعُ الِانْكِسَارِ».

وَأَخْرَجَ مِنْهُ أَوَّلًا ثُرَيًّا بَدِيعَةً مِنَ الْبَلُّورِ، مَحْزُومَةً بِعِنَايَةٍ، وَقَالَ: «هَذِهِ لِأُمِّكُمَا.»

فَقَالَتْ زَوْجَتُهُ:

«آهٍ! يَا لَهَا مِنْ مُفَاجَأَةٍ سَارَّةٍ، فَقَدْ طَالَمَا تَمَنَّيْتُ أَنْ أَظْفَرَ بِمِثْلِ هَذِهِ الثُّرَيَّا، لِأُجَمِّلَ بِهَا الْبَيْتَ.

أَلَا مَا أَبْدَعَ فُرُوعَهَا الْبَلُّورِيَّةَ الْمُزَخْرَفَةَ، الَّتِي تَتَدَلَّى مِنْهَا تِلْكَ الْكُرَاتُ الْجَمِيلَةُ، فَيَنْبَعِثُ — مِنْ سَنَاهَا وَلَأْلَائِهَا — مِثْلُ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ وَأَضْوَائِهَا.»

فَشَكَرَ لَهَا «صَفَاءٌ» مَا سَمِعَهُ عَلَى هَدِيَّتِهِ مِنْ ثَنَاءٍ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الْأَوْلَادِ قَائِلًا: «كَلَّا، لَمْ أَنْسَكُمْ قَطُّ، أَيُّهَا الْأَعِزَّاءُ؛ فَهَذِهِ آنِيَةٌ مِنَ الْبَلُّورِ لِدُمْيَةِ «لَيْلَى»، وَقَدْ صُنِعَتْ عَلَى أَبْدَعِ نَسْقٍ شَهِدَتْهُ أَفْخَمُ الْمَوَائِدِ.»

فَقَالَتْ «لَيْلَى» وَهِيَ شَدِيدَةُ الْفَرَحِ بِالْهَدِيَّةِ: «شُكْرًا لَكَ يَا أَبِي، فَهِيَ جَمِيلَةٌ بِلا شَكٍّ، وَمَا أَلْيَقَ دُمْيَتِي (عَرُوسِي) بِهَا، أَمَّا هَذِهِ الْأَقْدَاحُ وَالْأَبَارِيقُ وَالْقَوَارِيرُ، فَإِنِّي سَأَدَّخِرُهَا عِنْدِي، فَلَا أُخْرِجُهَا إِلَّا إِذَا تَنَاوَلْتُ طَعَامَ الْعَصْرِ فِي الْحَدِيقَةِ، أَوْ دَعَوْتُ بَعْضَ صَوَاحِبِي وَصَدِيقَاتِيَ الْعَزِيزَاتِ.»

وَاسْتَأْنَفَ «صَفَاءٌ» قَائِلًا: «أَمَّا أَنْتُمَا — يَا وَلَدَيَّ — فَقَدْ أَحْضَرْتُ لِكُلٍّ مِنْكُمَا مِحْبَرَةً وَرَمْلِيَّةً مِنَ الْبَلُّورِ، قَائِمَتَيْنِ عَلَى خَشَبِ الْآبَنُوسِ.»

فَقَالَ «ثَرْوَةُ»: «مَا أَبْدَعَ مَا تَخَيَّرْتَ لَنَا يَا أَبَتَاهُ، وَلَنْ أُلَطِّخَ دَوَاتِي بِالْمِدَادِ (الْحِبْرِ) أَبَدًا.»

وَقَالَ «مَحْمُودٌ»: «سَأَجْعَلُ مِحْبَرَتِي (دَوَاتِي) نَظِيفَةً دَائِمًا، وَسَأَضَعُ فِي الرَّمْلِيَّةِ رَمْلًا أَزْرَقَ جَمِيلًا، كَالَّذِي رَأَيْتُهُ فِي مَكْتَبِكَ يَا خَالِي الْعَزِيزَ.»

فَقَالَ «صَفَاءٌ»، وَقَدْ سُعِدَ بِسُرُورِهِمَا: «سَأُعْطِيكُمَا مَا تَطْلُبَانِ مِنَ الرَّمْلِ.»

وَسَأَلَتْهُ زَوْجَتُهُ: «مِنْ أَيْنَ اشْتَرَيْتَ هَذِهِ الطُّرَفَ الْجَمِيلَةَ؟»

فَقَالَ «صَفَاءٌ»: «زُرْتُ فِي رِحْلَتِي بَعْضَ مَصَانِعِ الْبَلُّورِ، وَاخْتَرْتُ هَذِهِ الطَّرَائِفَ مِنْهَا.»

فَقَالَ «ثَرْوَةُ»: «مَا أَشْوَقَنِي إِلَى رُؤْيَةِ بَعْضِ هَذِهِ الْمَصَانِعِ!

وَإِنَّ دَهْشَتِي لَتَعْظُمَ، كُلَّمَا فَكَّرْتُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْهَدَايَا الْبَدِيعَةِ — الَّتِي أَحْضَرْتَهَا لَنَا — وَحَاوَلْتُ أَنْ أَتَمَثَّلَ كَيْفَ تُصْنَعُ؟ وَبِأَيِّ وَسِيلَةٍ تَيَسَّرَ لِصَانِعِيهَا أَنْ يَصِلُوا بِهَا إِلَى هَذَا الْحَدِّ مِنَ الْإِبْدَاعِ وَالْإِتْقَانِ، وَالصَّقْلِ واللَّمَعَانِ، حَتَّى بَلَغَتْ هَذَا الْمَبْلَغَ مِنَ الْمَتَانَةِ وَالْجَمَالِ الشَّفَّافِ؟»

وَسَأَلَهُ مَحْمُودٌ: «أَحَقًّا — يَا خَالِيَ الْعَزِيزَ — أَنَّكَ رَأَيْتَ بِعَيْنَيْكَ مَصْنَعَ الْبَلُّورِ؟»

فَقَالَ «صَفَاءٌ»: «وَأَيُّ عَجَبٍ فِي ذَلِكَ؟

لَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنْ مَصَانِعِ الزُّجَاجِ فِي مُخْتَلِفِ الْبُلْدَانِ، وَشَاهَدْتُ كَيْفَ يُبْدِعُ الصُّنَّاعُ أَنْوَاعَ الزُّجَاجِ عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهِ وَأَلْوَانِهِ، وكَيْفَ يَتَأَنَّقُونَ فِي صُنْعِ الْمَرَايَا وَالْآنِيَةِ وَالْكُئُوسِ وَالْأَقْدَاحِ وَالْأَكْوَابِ، وَمَا إِلَى هَذَا مِمَّا تُشَاهِدُونَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ.»

فَقَالَ «مَحْمُودٌ»: «مَا أَشْوَقَنَا إِلَى سَمَاعِ شَيْءٍ مِمَّا اسْتَرْعَى نَظَرَكَ مِنَ الْمَشَاهِدِ؛ فَقَدْ طَالَمَا شُغِفْنَا بِسَمِاعِ طَرَفٍ مِنْ أَخْبَارِ الزُّجَاجِ، يُوَضِّحُ لَنَا: مِمَّ يُصْنَعُ، وَكَيْفَ يُصْقَلُ ثُمَّ يُصَاغُ أَكْوَابًا وَأَوَانِيَ وَثُرَيَّا وَمَصَابِيحَ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الطَّرَائِفِ؟

وَمَا نَدْرِي كَيْفَ يُوَفَّقُ الزَّجَّاجُونَ (صَانِعُو الزُّجَاجِ) إِلَى بُلُوغِ ذَلِكَ، بِحَيْثُ يَجْمَعُ بَيْنَ مَا نَرَاهُ مِنَ الدِّقَّةِ وَالْمَتَانَةِ؟! وَكَيْفَ أُتِيحَ لَهُمْ أَنْ يُكْسِبُوهُ ذَلِكَ الشُّفُوفَ الَّذِي لَا يَعُوقُ الْبَصَرَ عَنْ رُؤْيَةِ مَا وَرَاءَهُ، بِحَيْثُ تَتَخَطَّاهُ الْعَيْنُ، فَلَا تَفْطُنُ إِلَى وُجُودِهِ!»

فَقَالَ «صَفَاءٌ»: «إِنِّي مُجِيبُكُمْ إِلَى طِلْبَتِكُمْ، بَعْدَ أَنْ أَسْتَرِيحَ مِنْ عَنَاءِ السَّفَرِ.»

وَمَا مَضَتْ أَيَّامٌ قَلَائِلُ حَتَّى جَمَعَ «صَفَاءٌ» أُسْرَتَهُ، وَجَلَسَ يَسْمُرُ بَيْنَهُمْ فِي مُسْتَشْرِفِ الدَّارِ، الْمُزَيَّنِ بِمُخْتَلِفِ النَّبَاتِ وَالْأَزْهَارِ، تَحْقِيقًا لِمَا وَعَدَهُمْ بِهِ.

سَأَلَتْهُ «لَيْلَى»: «مِنْ أَيْنَ يُسْتَخْرَجُ الزُّجَاجُ يَا أَبِي؟»

فَقَالَ «صَفَاءٌ»:

«إِنَّ الزُّجَاجَ الَّذِي تَسْأَلِينَنِي عَنْهُ — أَعْنِي الزُّجَاجَ الَّذِي تُصْنَعُ مِنْهُ الْأَقْدَاحُ وَالْآنِيَةُ وَالْقَوَارِيرُ (الزُّجَاجَاتُ) وَمَا إِلَيْهَا — لَيْسَ مِنَ الْمَعَادِنِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي يَسْتَخْرِجُهَا النَّاسُ كَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْفَحْمِ الْحَجَرِيِّ وَالْمَاسِ وَأَمْثَالِهَا.

إِنَّ الزُّجَاجَ — الَّذِي تَسْأَلِينَنِي عَنْهُ — لَيْسَ مِنْ مَعَادِنِ الْأَرْضِ، بَلْ هُوَ ثَمَرَةُ صِنَاعَةٍ بَارِعَةٍ، قَائِمَةٍ عَلَى الْخِبْرَةِ وَالتَّجْرِبَةِ، مُسْتَمَدَّةٍ أَسْرَارُهَا مِنَ الْبُحُوثِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُتَتَابِعَةِ.

وَقَدِ ارْتَقَتْ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ عَلَى مَرِّ الْأَجْيَالِ، حَتَّى بَلَغَتِ الْغَايَةَ مِنَ الصَّقْلِ وَالْإِتْقَانِ، وَالشُّفُوفِ وَاللَّمَعَانِ: هَذَا هُوَ الزُّجَاجُ الصِّنَاعِيُّ.

عَلَى أَنَّ فِي جَوْفِ الْأَرْضِ نَوْعًا مِنَ الزُّجَاجِ الطَّبِيعِيِّ، وَالزُّجَاجِ الْبُرْكَانِيِّ، وَالْعَقِيقِ.

وَلَكِنَّ هَذَا كُلَّهُ قَلِيلٌ نَادِرٌ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَطَالِبِ الْإِنْسَانِ، وَهُوَ — لِقِلَّتِهِ وَنَدْرَتِهِ — لَا يَقُومُ بِحَاجَةِ النَّاسِ.»

فَسَأَلَتْهُ «لَيْلَى»: «خَبِّرْنِي يَا أَبِي، كَيْفَ اهْتَدَى الْبَاحِثُونَ إِلَى اخْتِرَاعِ الزُّجَاجِ؟»

فَقَالَ «صَفَاءٌ»:

«ذَلِكَ مَا لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ؛ فَهُوَ مِنَ الْأَسْرَارِ الَّتِي خُفِيَتْ عَنَّا، وَضَاعَتْ فِي مَجَاهِلِ التَّارِيخِ.

وَكَمْ مِنْ حَقَائِقَ غَفَلَ عَنْ تَسْجِيلِهَا الْبَاحِثُونَ، وَحَقَائِقَ أُخْرَى سُجِّلَتْ ثُمَّ بَدَّدَتِ الْحَوَادِثُ سِجِلَّاتِهَا، وَمَحَتْ صَفَحَاتِهَا، فَضَاعَتْ فِي زَوَايَا النِّسْيَانِ.

وَمِنْ هَذِهِ الْحَقَائِقِ الْمَجْهُولَةِ، الَّتِي لَمْ يُوَفَّقِ الْبَاحِثُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا، اخْتِرَاعُ الزُّجَاجِ!

وَمَنْ يَدْرِي؟ فَلَعَلَّهُ انْتَقَلَ إِلَيْنَا مُصَادَفَةً، أَوْ لَعَلَّ بَعْضَ أَسْلَافِنَا — مِنَ الْقُدَمَاءِ — عَمَدُوا إِلَى مَا قَذَفَتْهُ الْبَرَاكِينُ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الزُّجَاجِ!

وَلِئِنْ عَجَزْنَا عَنْ الِاهْتِدَاءِ إِلَى أَوَّلِ مَنِ اخْتَرَعَهُ، وَعَزَّ عَلَيْنَا أَنْ نَتَعَرَّفَهُ عَلَى وَجْهِ الْيَقِينِ، لَمْ يُعْجِزْنَا أَنْ نَظْفَرَ بِمَا تَخَيَّلَهُ الْقُدَمَاءُ مِنْ أَسَاطِيرَ بَارِعَةٍ، تَمَثَّلُوا فِيهَا كَيْفَ ذَاعَ سِرُّهُ لِلنَّاسِ.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اخْتِرَاعَ الزُّجَاجِ جَاءَ مُصَادَفَةً، فَإِنَّ النَّاسَ قَلَّمَا يَلْجَئُونَ إِلَى اخْتِرَاعِ الْأَسَاطِيرِ، إِلَّا إِذَا عَجَزُوا عَنْ الِاهْتِدَاءِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ.

وَإِلَيْكُمُ الْأُسْطُورَةَ الْأُولَى.»

الْفَصْلُ الثَّانِي

تُجَّارُ «فِينِيقِيَّةَ»

مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، لَا يَقِلُّ عَنْ آلَافٍ ثَلَاثَةٍ مِنَ السِّنِينَ، عَاشَ جَمَاعَةٌ مِنَ التُّجَّارِ الْفِينِيقِيِّينَ، الْمَعْرُوفِينَ بِالنَّشَاطِ، وَكَانُوا يَتَنَقَّلُونَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، حَتَّى بَلَغُوا «مِصْرَ»، فَأَقَامُوا بِهَا زَمَنًا، ثُمَّ عَادُوا مِنْهَا بِأَكْيَاسٍ مَمْلُوءَةٍ بِالنَّطْرُونِ، وَهُوَ مَا نُطْلِقُ عَلَيْهِ الْيَوْمَ اسْمَ: «كَرْبُونَاتِ الصُّودَا».

وَهِيَ — كَمَا تَعْلَمُونَ — مِنَ الْمَوَادِّ الْبَلُّورِيَّةِ، وَتُسْتَخْدَمُ فِي التَّبْيِيضِ وَالصِّبَاغَةِ، وَلَا تَزَالُ تُسْتَخْدَمُ فِي صِنَاعَةِ الزُّجَاجِ إِلَى الْيَوْمِ؛ وَلِسَائِلِهَا فِيهِ أَثَرٌ فَعَّالٌ، كَمَا تُسْتَخْدَمُ الصُّودَا الْكَاوِيَةُ فِي صِنَاعَةِ الصَّابُونِ.

وَبَيْنَا هَؤُلَاءِ التُّجَّارُ عَائِدُونَ مِنْ سَفَرِهِمُ الطَّوِيلِ إِلَى وَطَنِهِمْ: «سِيدُونَ»؛ بَلَغُوا نَهَرَ «بِيلُوسَ»: أَحَدَ أَنْهَارِ «فِينِيقِيَّةَ».

وَكَانَ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ التَّعَبُ، فَأَمَرَهُمْ زَعِيمُهُمْ أَنْ يَحُلُّوا فِي هَذَا الْمَكَانِ، لِيَأْخُذُوا قِسْطَهُمْ مِنَ الرَّاحَةِ وَالنَّوْمِ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُوا سَفَرَهُمْ غَدًا.

فَضَرَبَتِ الْقَافِلَةُ خِيَامَهَا عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ.

وَأَسْرَعَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَتْبَاعِ الزَّعِيمِ إِلَى إِقَامَةِ الْخِيَامِ، وَأَسْرَعَتْ جَمَاعَةٌ أُخْرَى لِتَجْلُبَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْقَافِلَةُ مِنْ خَشَبٍ وَحَطَبٍ وَأَحْجَارٍ، لِكَي يَتَّخِذُوا مِنَ الْخَشَبِ وَالْحَطَبِ وَقُودًا، وَمِنَ الْحِجَارَةِ مَوْقِدًا.

وَكَانَ الْحَطَبُ كَثِيرًا مَوْفُورًا، فَلَمْ يَلْقَوْا فِي إِحْضَارِهِ أَقَلَّ عَنَاءٍ. أَمَّا الْحِجَارَةُ فَكَانَتْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ بَحَثُوا عَنْهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَلَمْ يَظْفَرُوا بِحَجَرٍ، وَلَمْ يَعْثُرُوا لَهُ عَلَى أَثَرٍ. فَأَعْلَنُوا لِزَعِيمِهِمْ عَجْزَهُمْ عَنْ الِاهْتِدَاءِ إِلَى مَكَانِ الْحِجَارَةِ.

فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ لَدَيْنَا عِوَضًا عَنْهَا.»

فَسَأَلُوهُ: «أَيَّ عِوَضٍ تَعْنِي؟»

فَقَالَ: «عِنْدَنَا قِطَعٌ كَثِيرَةٌ مِمَّا جَلَبْنَاهُ مِنْ «مِصْرَ» مِنْ أَحْجَارِ النَّطْرُونِ الْكَبِيرَةِ، وَهِيَ تُغْنِينَا عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَحْجَارِ، فَاصْنَعُوا مِنْهَا مَوْقِدًا.»

فَحَبَّذُوا اقْتِرَاحَهُ، وَاتَّخَذُوا مِنْهَا أَثَافِيَّ (وَهِيَ الْأَحْجَارُ الَّتِي تُوضَعُ عَلَيْهَا الْقِدْرُ.)

وَظَلُّوا يُوقِدُونَ النَّارَ عَلَى الرِّمَالِ الدَّقِيقَةِ، الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْهَا أَرْضُ ذَلِكَ الْمَكَانِ، بَعْدَ أَنْ وَضَعُوا عَلَيْهَا قِطَعَ الصُّودَا، وَأَقَامُوا فَوْقَهَا أَوَانِيَهُمْ؛ لِيُنْضِجُوا مَا فِيهَا مِنَ اللَّحْمِ.

فَلَمَّا أَكَلُوا، رَقَدُوا حَوْلَ مَوْقِدِهِمْ وَادِعِينَ.

وَظَلَّتِ النَّارُ تَتَلَظَّى مُشْتَعِلَةً طُولَ اللَّيْلِ.

وَلَمَّا هَمَّ التُّجَّارُ بِرَفْعِ أَوَانِيهِمْ فِي الصَّبَاحِ، وَعَزَمُوا عَلَى اسْتِئْنَافِ سَفَرِهِمْ، اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمُ الدَّهْشَةُ، حِينَ بَحَثُوا عَنْ أَحْجَارِ النَّطْرُونِ؛ فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا أَثَرًا.

وَضَاعَفَ مِنْ دَهْشَتِهِمْ أَنَّهُمْ وَجَدُوا مَكَانَهَا مَادَّةً أُخْرَى بَرَّاقَةً شَفَّافَةً يَجْهَلُونَهَا الْجَهْلَ كُلَّهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ أَمْرِهَا شَيْئًا.

فَسَأَلَهُمُ الزَّعِيمُ: «أَيْنَ ذَهَبَتْ أَحْجَارُ الصُّودَا؟»

فَأَجَابَهُ أَحَدُ أَتْبَاعِهِ: «عَجِيبٌ أَنَّهَا اسْتَخْفَتْ، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا أَثَرٌ، وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا اسْتُبْدِلَتْ بِهَا تِلْكَ الْمَادَّةُ الصُّلْبَةُ اللَّامِعَةُ، الَّتِي تَخْتَرِقُهَا أَشِعَّةُ الشَّمْسِ.»

فَقَالَ زَعِيمُهُمْ مُتَحَيِّرًا:

«تُرَى مَنِ الَّذِي سَرَقَ حِجَارَتَنَا؟

وَهَلْ حَدَثَ هَذَا فِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ وَنَحْنُ نَائِمُونَ؟»

فَقَالَ أَحَدُ أَصْحَابِهِ: «لَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ الْعَجِيبَةَ لَا يَجْرُؤُ عَلَيْهَا إِلَّا جِنِّيٌّ أَرَادَ أَنْ يُعَاكِسَنَا وَيَسْخَرَ مِنَّا.»

وَظَلَّ التُّجَّارُ الْفِينِيقِيُّونَ يَتَدَاوَلُونَ الْقِطَعَ الْجَدِيدَةَ، وَيُنْعِمُونَ النَّظَرَ فِيهَا، وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ، وَيُطِيلُونَ تَأَمُّلَهَا وَالْفَحْصَ عَنْهَا، وَقَدِ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمْ دَهْشَةٌ، يُخَامِرُهَا شَيْءٌ مِنَ الْفَزَعِ وَالرُّعْبِ.



وَكَانَ بَيْنَهُمْ شَيْخٌ مُجَرَّبٌ، مَعْرُوفٌ بِالْحَصَافَةِ وَالْحِكْمَةِ؛ فَرَاحَ يُعْمِلُ فِكْرَهُ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ لِرِفَاقِهِ:

«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الرَّمْلَ — الَّذِي وَضَعْنَا فَوْقَهُ أَحْجَارَ الصُّودَا وَأَوْقَدْنَا عَلَيْهِ النَّارَ — قَدِ اسْتَخْفَى، كَمَا اسْتَخْفَتْ أَحْجَارُ الصُّودَا مَعَهُ، وَلَمْ تَبْقَ مِنَ الرَّمْلِ إِلَّا آثَارٌ قَلِيلَةٌ، لَا تَزَالُ عَالِقَةً بِهَذِهِ الْمَادَّةِ الْجَدِيدَةِ الشَّفَّافَةِ.

ارْجِعُوا الْبَصَرَ — كَرَّةً أُخْرَى — تَرَوْا قِطَعًا مِنَ الْفَحْمِ لَمْ تَخْمُدْ نَارُهَا بَعْدُ.



أَلَيْسَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَكُونَ النَّارُ قَدْ مَزَجَتِ النَّطْرُونَ بِالرَّمْلِ، وَأَلَّفَتْ مِنْهُمَا — بَعْدَ الِامْتِزَاجِ — هَذِهِ الْمَادَّةَ الشَّفَّافَةَ؟»

فَقَالَ الزَّعِيمُ: «ذَلِكَ أَمْرٌ مُحْتَمَلُ الْوُقُوعِ.

فَلْنُوقِدِ النَّارَ عَلَى الرَّمْلِ مَرَّةً أُخْرَى، وَلْنَضَعْ عَلَيْهَا قِطَعًا مِنْ أَحْجَارِ النَّطْرُونِ، لِنَرَى مَاذَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهَا.

فَإِذَا تَأَلَّفَتْ مِنْهَا تِلْكَ الْمَادَّةُ الْغَرِيبَةُ الشَّفَّافَةُ، صَحَّ مَا تَقُولُ.»

وَبَقِيَتِ الْقَافِلَةُ — فِي مَكَانِهَا — يَوْمًا آخَرَ، حَيْثُ أَوْقَدَتْ نَارًا حَامِيَةً، أَقَامَتْ عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنَ الصُّودَا.

وَظَلَّ التُّجَّارُ يَرْقُبُونَ النَّارَ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً، وَهُمْ يُؤَجِّجُونَ وَقُودَهَا، وَلَا يَتَوَانَوْنَ عَنْ تَزْوِيدِهَا بِالْحَطَبِ وَالْخَشَبِ — بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ — حَتَّى انْقَضَى النَّهَارُ كُلُّهُ؛ فَرَأَوْا سَائِلًا أَحْمَرَ يَنْسَابُ مِنْ خِلَالِ الرَّمَادِ، وَيَجْرِي فِي أَثْنَائِهِ، ثُمَّ يَنْعَقِدُ مُتَجَمِّدًا — شَيْئًا فَشَيْئًا — كُلَّمَا بَرَدَ.

فَأَقْبَلَ التُّجَّارُ عَلَى تِلْكَ الْمَادَّةِ مَدْهُوشِينَ مِمَّا وُفِّقُوا إِلَيْهِ مِنَ اخْتِرَاعٍ، وَأَخَذَ كُلُّ تَاجِرٍ قِطْعَةً مِنْهَا، لِيَحْمِلَهَا إِلَى «سِيدُونَ».

وَكَانَتْ هَذِهِ الرِّحْلَةُ بِدَايَةَ عَهْدٍ جَدِيدٍ، بَعْدَ أَنْ كُشِفَ لِلْعَالَمِ الْغِطَاءُ عَنْ سِرِّ الزُّجَاجِ، وَكَانَ مَطْوِيًّا قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وكَانَتْ خُطْوَةً مُوَفَّقَةً، تَبِعَتْهَا خُطُوَاتٌ، مَمْلُوءَةٌ بِالْيُمْنِ وَالْبَرَكَاتِ.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

مَدِينَةُ الزُّجَاجِ

فَقَالَ «ثَرْوَةُ»: «مَا أَعْجَبَهَا قِصَّةً يَا أَبَتَاهُ!»

وَقَالَتْ «لَيْلَى» وَ«مَحْمُودٌ»: «مَا سَمِعْنَا أَبْرَعَ مِنْهَا فِي كُلِّ مَا سَمِعْنَاهُ.»

فَقَالَ «صَفَاءٌ»: «هَلْ سَمِعْتُمْ بِمَدِينَةِ الزُّجَاجِ؟»

فَقَالَ «ثَرْوَةُ» وَ«مَحْمُودٌ»: «مَا سَمِعْنَا بِهَذِهِ الْمَدِينَةِ قَبْلَ الْآنَ!»

وَقَالَتْ «لَيْلَى»: «لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ هَذَا الِاسْمَ كَانَ يُطْلَقُ — مُنْذُ قَدِيمِ الزَّمَانِ — عَلَى مَدِينَةِ «طِيبَةَ»: تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي كَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهَا — مُنْذُ آلَافِ السِّنِينَ — اسْمُ مَدِينَةِ الزُّجَاجِ، وَكَانَ لَهَا — فِيمَا سَمِعْتُ — مِائَةُ بَابٍ، وَلَا يَزَالُ مَا بَقِيَ مِنْ أَطْلَالِهَا وَآثَارِهَا مَاثِلًا إِلَى الْيَوْمِ، يُدْهِشُ مَنْ رَآهُ.»

فَقَالَ «صَفَاءٌ»: «صَدَقْتِ يَا «لَيْلَى»! فَهَلْ عَرَفْتِ لِمَ أُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ مَدِينَةِ الزُّجَاجِ؟»

– كَلَّا يَا أَبَتِ، وَمَا أَشْوَقَنِي إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ!

– لَقَدْ تَرَكَ لَنَا الْقَصَّاصُونَ أُسْطُورَةً بَدِيعَةً، زَعَمُوا أَنَّهَا كَانَتِ السَّبَبَ فِي إِطْلَاقِ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ عَلَيْهَا.

– لَعَلَّهَا كَسَابِقَتِهَا إِمْتَاعًا وَتَشْوِيقًا!

– بَلْ هِيَ أَمْتَعُ مِنْهَا وَأَبْدَعُ.

– لَيْتَكَ تَقُصُّهَا عَلَيْنَا يَا أَبِي.

– لَكُمْ مَا تَشَاءُونَ، اسْتَمِعُوا لِي:

زَعَمُوا أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ «طِيبَةَ» الْأَقْدَمِينَ — وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْفَرَاعِنَةِ وَأَقْوَاهُمْ — كَانَ لَهُ بِنْتٌ، هِيَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي جَمَالِ الصُّورَةِ وَصَفَاءِ الطَّبْعِ، تَجْمَعُ بَيْنَ الذَّكَاءِ وَكَرَمِ النَّفْسِ.

وَرَأَى وَالِدُهَا أَلَّا يُزَوِّجَهَا أَحَدًا إِلَّا إِذَا كَانَ أَوْحَدِيَّ زَمَانِهِ؛ وَآيَةُ ذَلِكَ أَنْ يَأْتِيَ بِشَيْءٍ جَدِيدٍ لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ سَابِقٌ، لِيَكُونَ جَدِيرًا بِالزَّوَاجِ بِالْأَمِيرَةِ الَّتِي عَهِدَ إِلَيْهَا بِوِلَايَةِ عَهْدِهِ، وَالسَّهَرِ عَلَى مُلْكِ «مِصْرَ» مِنْ بَعْدِهِ!

فَأَعْلَنَ ذَلِكَ الْفِرْعَونُ فِي أَرْجَاءِ مُلْكِهِ أَنَّ الْأَمِيرَةَ لَنْ تَتَزَوَّجَ إِلَّا رَجُلًا مُنْفَرِدًا بِذَكَائِهِ وَكِفَايَتِهِ وَنَفَاذِ بَصِيرَتِهِ.

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ أَنْ يُوَفَّقَ إِلَى صُنْعِ مَادَّةٍ بَرَّاقَةٍ كَالذَّهَبِ، شَفَّافَةٍ كَمَاءِ الْيَنْبُوعِ، لَيِّنَةٍ كَالرَّصَاصِ، رَنَّانَةٍ كَالنُّحَاسِ.

وَكَانَ الْمَلِكُ وَاثِقًا كُلَّ الثِّقَةِ أَنْ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ مَادَّةٌ تَجْتَمِعُ فِيهَا كُلُّ هَذِهِ الْمَزَايَا الْمُخْتَلِفَةِ. فَإِذَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا، كَانَ كُفْئًا لِلْأَمِيرَةِ الَّتِي لَيْسَ فِي الْعَالَمِ أَجْمَعَ مَنْ يُمَاثِلُهَا فِي صِفَاتِهَا النَّادِرَةِ، وَمَزَايَاهَا الْبَاهِرَةِ.

وَقَدْ يَئِسَ مِنَ الزَّوَاجِ بِالْأَمِيرَةِ جَمِيعُ مَنْ سَمِعَ هَذَا الْمَطْلَبَ، وَكَانَ بَيْنَ أُولَئِكَ الْمُتَنَافِسِينَ الطَّامِعِينَ فِي زَوَاجِهَا، أَمِيرٌ ذَكِيٌّ مِنْ فِتْيَانِ النُّوبَةِ، يُدْعَى: «بِسَامِيت»، هَرَبَ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى «مِصْرَ»؛ بَعْدَ أَنْ أَجْلَاهُ عَنْهَا أَعْدَاؤُهُ وَغَلَبُوهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَقَتَلُوا أَبَاهُ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى مُلْكِهِ، ثُمَّ طَرَدُوا الْأَمِيرَ «بِسَامِيتَ»، وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَرْشِ أَبِيهِ.

فَهَرَبَ الْأَمِيرُ «بِسَامِيتُ» إِلَى مَدِينَةِ «طِيبَةَ»، حَيْثُ عَاشَ عِيشَةَ الْوَادِعِ الْفَقِيرِ، فِي كُوخٍ حَقِيرٍ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنْ مَوْرِدٍ يَرْتَزِقُ مِنْهُ غَيْرُ الْعِنَايَةِ بِتَرْبِيَةِ الْغَنَمِ.

وَرَأَى الْأَمِيرُ «بِسَامِيتُ» وَلِيَّةَ الْعَهْدِ: بِنْتَ «فِرْعَوْنِ مِصْرَ» أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، فَافْتَتَنَ بِمَا وَهَبَ اللهُ لَهَا مِنْ جَمَالِ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ، فَطَمَحَتْ نَفْسُهُ إِلَى الِاقْتِرَانِ بِهَا.

وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ؛ فَلَمْ يَكُنِ الْأَمِيرُ «بِسَامِيتُ» يَقِلُّ عَنْ بِنْتِ فِرْعَوْنَ شَرَفَ مَنْصِبٍ، وَعُلُوَّ مَنْزِلَةٍ، وَقَدْ كَانَ وَلِيَّ عَهْدٍ مِثْلَهَا.

وَلَكِنَّ مَا يُعَانِيهِ مِنْ فَقْرِهِ وَغُرْبَتِهِ، وَإِقْصَائِهِ عَنْ مَمْلَكَتِهِ، فَتَّ فِي عَضُدِهِ، وَقَعَدَ بِهِمَّتِهِ، فَلَمْ يَجْرُؤْ عَلَى مُفَاتَحَةِ «فِرْعَوْنَ» فِي زَوَاجِ الْأَمِيرَةِ.

وَجَلَسَ «بِسَامِيتُ» أَمَامَ بَيْتِهِ — ذَاتَ لَيْلَةٍ — كَاسِفَ الْبَالِ، مُنَكِّسَ الرَّأْسِ، حَزِينَ النَّفْسِ، وَهُوَ يَنْدُبُ حَظَّهُ التَّاعِسَ، مُتَأَلِّمًا مَحْزُونًا، مُقَابِلًا بَيْنَ يَوْمِهِ وَأَمْسِهِ، وَمَا لَقِيَهُ مِنْ حَالَيْهِ؛ فِي نَعِيمِهِ وَبُؤْسِهِ، وَكَيْفَ حَالَ الزَّمَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَرْشِهِ، وَبَاعَدَ بَيْنَ مَنْزِلَتِهِ وَمَنْزِلَةِ عِرْسِهِ.

وَأَحَسَّ الْأَمِيرُ أَنَّ الْعَاصِفَةَ تُنْذِرُ بِالْهُبُوبِ، وَرَأَى فِي الْجَوِّ سُحُبًا قَاتِمَةً تَتَجَمَّعُ فِي الْفَضَاءِ.

ثَمَّ تُدَوِّي رُعُودُهَا وَتَقْصِفُ فَيُسْمَعُ لَهَا أَصْوَاتٌ مُفَزِّعَةٌ، تَكَادُ تُصِمُّ الْآذَانَ، أَشْبَهُ بِزَئِيرِ الْأُسُودِ أَوْ عُوَاءِ الذِّئَابِ.

وَرَأَى — فِي خِلَالِ السُّحُبِ — بُرُوقًا خَاطِفَةً، يَكَادُ سَنَاهَا (ضَوْءُهَا) يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ.

وَلَمْ يَمْضِ زَمَنٌ قَلِيلٌ؛ حَتَّى ظَهَرَ أَمَامَهُ فَجْأَةً شَيْخٌ وَقُورٌ، رَائِعُ السَّمْتِ، جَلِيلُ الْهَيْئَةِ، تَتَدَلَّى عَلَى صَدْرِهِ لِحْيَةٌ طَوِيلَةٌ بَيْضَاءُ، وَيَبْدُو عَلَى أَسَارِيرِهِ (خُطُوطِ جَبِينِهِ) التَّعَبُ وَالْإِعْيَاءُ.

وَرَأَى الشَّيْخَ مُيَمِّمًا نَحْوَهُ، وَقَدْ عَلَاهُ الْغُبَارُ، حَتَّى إِذَا دَانَاهُ (اقْتَرَبَ مِنْهُ) أَقْبَلَ عَلَيْهِ يُحَيِّيهِ.

فَرَدَّ عَلَيْهِ الْأَمِيرُ تَحِيَّتَهُ أَحْسَنَ رَدٍّ، وَسَأَلَهُ إِلَى أَيْنَ يَقْصِدُ؟

فَأَجَابَهُ الشَّيْخُ: «كَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُوَاصِلَ سَيْرَهُ فِي هَذَا الْجَوِّ الرَّاعِدِ الْمَطِيرِ؟

لَقَدْ تَحَيَّرْتُ؛ فَمَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ، بَعْدَ أَنْ تَحَالَفَ عَلَيَّ الْجُوعُ وَالتَّعَبُ فَأَعْجَزَانِي عَنِ السَّيْرِ؟»

فَقَالَ الْأَمِيرُ:

«فَمَاذَا عَلَيْكَ — يَا سَيِّدِي — لَوْ عَرَّجْتَ عَلَى دَارِي فَشَرَّفْتَهَا بِزِيَارَتِكَ، وَقَضَيْتَ فِيهَا مَا بَقِيَ مِنْ لَيْلَتِكَ؟»

فَأَجَابَهُ الشَّيْخُ: «شُكْرًا لَكَ يَا فَتَى.»

فَقَالَ الْأَمِيرُ: «إِنَّكَ لَتُضَاعِفُ مِنْ سَعَادَتِي، لَوْ حَلَلْتَ عِنْدِي ضَيْفًا، وَقَاسَمْتَنِي مَا لَدَيَّ مِنْ طَعَامٍ قَلِيلٍ، وَلَسْتُ أَمْلِكُ مِنَ الزَّادِ غَيْرَ الْحَلِيبِ وَالْقِشْدَةِ وَالْفَاكِهَةِ.»

فَقَالَ الشَّيْخُ: «مَا أَعْظَمَهَا مِنَّةً، وَأَكْرَمَهَا نِعْمَةً، وَمَا أَطْيَبَهُ طَعَامًا، وَأَشْهَاهُ إِدَامًا! لَقَدْ كُنْتُ أَطْمَعُ فِي أَقَلَّ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ. وَقَدْ قَبِلْتُ دَعْوَتَكَ، شَاكِرًا لَكَ أَرْيَحِيَّتَكَ، وَكَرَمَكَ وَمُرُوءَتَكَ.»

وَجَلَسَ الشَّيْخُ إِلَى الْمَائِدَةِ.



وَلَمْ يَأْلُ الْأَمِيرُ جُهْدًا فِي خِدْمَتِهِ، وَإِينَاسِهِ وَمُسَامَرَتِهِ، وَالتَّوَدُّدِ إِلَيْهِ، وَإِدْخَالِ الْبَهْجَةِ عَلَيْهِ.

وَأَدْرَكَ الضَّيْفُ مِنْ حَدِيثِ الْأَمِيرِ «بِسَامِيتَ» مَا لَقِيَهُ مِنْ كَيْدِ أَعْدَائِهِ الْأَقْوِيَاءِ، وَمَا كَابَدَهُ مِنْ أَحْدَاثِ الزَّمَنِ وَمَصَائِبِهِ، كَمَا عَرَفَ شَغَفَهُ بِزَوَاجِ الْأَمِيرَةِ ابْنَةِ «فِرْعَوْنَ».

وَتَأَلَّمَ لِحُزْنِ الْأَمِيرِ وَتَحَسُّرِهِ، لِعَجْزِهِ عَنْ تَحْقِيقِ رَغْبَةِ ذَلِكَ الْمَلِكِ، وَيَأْسِهِ مِنَ الظَّفَرِ بِمَهْرِ ابْنَتِهِ الَّذِي أَعْجَزَ كُلَّ خَاطِبٍ، وَأَيْأَسَ كُلَّ رَاغِبٍ.

وَخَتَمَ الْأَمِيرُ شَكْوَاهُ مُتَأَلِّمًا، وَهُوَ يَقُولُ: «وَمِنْ أَيْنَ لِمِثْلِي أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى تِلْكَ الْمَادَّةِ الْعَجِيبَةِ الْبَرَّاقَةِ كَالذَّهَبِ، الشَّفَّافَةِ كَمَاءِ الْيَنْبُوعِ، اللَّيِّنَةِ كَالرَّصَاصِ، الرَّنَّانَةِ كَالنُّحَاسِ؟»

فَرَبَّتَ الشَّيْخُ كَتِفَ الْأَمِيرِ، وَقَالَ لَهُ بَاسِمًا: «مَا أَظُنُّ شَيْئًا فِي الْعَالَمِ — يَا وَلَدِي — يَتَعَذَّرُ عَلَى مَنْ مَنَحَهُ اللهُ مِثْلَ صَفَاءِ نَفْسِكَ، وَطِيبَةِ قَلْبِكَ!»

فَقَالَ الْأَمِيرُ:

«وَهَلْ يَحْتَوِي الْعَالَمُ كُلُّهُ مِثْلَ هَذِهِ الْمَادَّةِ الْعَجِيبَةِ؟ وَأَيْنَ السَّبِيلُ إِلَيْهَا، إِنْ كَانَ لَهَا وُجُودٌ؟»

فَرَبَّتَهُ الشَّيْخُ، وَقَالَ لَهُ مُهَوِّنًا عَلَيْهِ: «لَا عَلَيْكَ، أَيُّهَا الْفَتَى النَّبِيلُ.

كُنْ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ اللهَ فِي عَوْنِ الْأَخْيَارِ دَائِمًا.»

وَمَا إِنْ بَلَغَ الشَّيْخُ هَذَا الْحَدَّ مِنْ حِوَارِهِ، حَتَّى بَدَا عَلَى سِيمَاهُ الْجَهْدُ وَالتَّعَبُ، فَاسْتَأْذَنَ الْأَمِيرَ فِي النَّوْمِ.

وَكَانَ الْأَمِيرُ قَدْ هَيَّأَ لَهُ — فِي الْحُجْرَةِ الْمُجَاوِرَةِ — سَرِيرًا مِنْ وَرَقِ الْبَرْدِيِّ، وَأَعَدَّ لَهُ فَرْشًا وَثِيرًا مِنَ الْجِلْدِ فِي مِثْلِ نُعُومَةِ الْحَرِيرِ، فَنَامَ الشَّيْخُ وَادِعًا قَرِيرَ الْعَيْنِ.

وَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ، تَهَيَّأَ الشَّيْخُ لِاسْتِئْنَافِ سَيْرِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْأَمِيرِ — وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَاهُ — مُسْتَأْذِنًا إِيَّاهُ فِي الذَّهَابِ إِلَى غَايَتِهِ.

فَاسْتَبْقَاهُ الْأَمِيرُ حَتَّى يُقَاسِمَهُ الْفَطُورَ، وَقَدَّمَ لَهُ كُوبًا مِنَ الْحَلِيبِ، وَصَحْفَةً مِنَ الْقِشْدَةِ، وَأَعَدَّ لَهُ رَغِيفًا سَاخِنًا أَنْضَجَهُ عَلَى الرَّمَادِ.

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ مُتَوَدِّدًا، وَهُوَ يَقُولُ:

«شُكْرًا لَكَ، أَيُّهَا الْفَتَى الصَّدِيقُ، فَقَدْ غَمَرْتَنِي بِكَرَمِكَ؛ عَلَى مَا تُعَانِيهِ مِنْ شُغْلِ الْبَالِ، وَتُكَابِدُهُ مِنْ رِقَّةِ الْحَالِ، وَقِلَّةِ الْمَالِ، لَقَدْ بَذَلْتَ فِي سَبِيلِ تَكْرِيمِ ضَيْفٍ لَمْ تَعْرِفْهُ أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَطِيعُ ...

وَقَدْ تَبَيَّنْتُ مِنْ شَكْوَاكَ مَا دَلَّنِي عَلَى كَرَمِ أَصْلِكَ، وَطِيبَةِ قَلْبِكَ، وَرَجَاحَةِ عَقْلِكَ، وَلَنْ أُقَصِّرَ فِي تَيْسِيرِ طِلْبَتِكَ، وَتَحْقِيقِ رَغْبَتِكَ.

وَلَا بُدَّ مِنْ مُكَافَأَتِكَ — بَعْدَ أَنْ غَمَرَنِي وَفَاؤُكَ — وَرَدِّ الْمُلْكِ الَّذِي اغْتَصَبَهُ أَعْدَاؤُكَ. هَلُمَّ — يَا بُنَيَّ — فَاتْبَعْنِي إِلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ.»

فَتَبِعَهُ الْأَمِيرُ «بِسَامِيتُ»، وَقَدِ امْتَلَأَتْ نَفْسُهُ — مِمَّا سَمِعَ — رَجَاءً وَأَمَلًا.

وَلَمَّا بَلَغَ ضِفَّةَ النِّيلِ، أَمَرَهُ أَنْ يَجْمَعَ كُومَةً كَبِيرَةً مِنَ الْحَطَبِ، ثُمَّ يُوقِدَهَا عَلَى الشَّاطِئِ.

وَلَمَّا اشْتَعَلَتِ النَّارُ فِي الْحَطَبِ وَتَأَجَّجَتْ، أَلْقَى الشَّيْخُ فِي اللَّهَبِ قِطَعًا كَبِيرَةً مِنْ مَادَّةٍ بَلُّورِيَّةٍ بَيْضَاءَ، وَالْتَفَتَ إِلَى الْأَمِيرِ «بِسَامِيتَ»، وَهُوَ يَقُولُ:

«تَعَهَّدْ هَذِهِ النَّارَ — يَا فَتَى — وَابْقَ بِجِوَارِهَا إِلَى الْغَدِ، وَلَا تُقَصِّرْ فِي جَلْبِ مَا تَسْتَطِيعُ مِنَ الْخَشَبِ وَالْحَطَبِ لِإِذْكَاءِ اللَّهَبِ.

وَسَتَرَى — مَتَى اتَّبَعْتَ نُصْحِي — كَيْفَ أَجْعَلُكَ أَسْعَدَ خَلْقِ اللهِ إِنْسَانًا!»

وَلَمْ يَزِدِ الشَّيْخُ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَكْثَرَ مِنَ ابْتِسَامَةٍ وَتَحِيَّةٍ، ثُمَّ اسْتَخْفَى الشَّيْخُ فَجْأَةً، مُتَوَارِيًا فِي خِلَالِ النَّخِيلِ الَّذِي يَحُفُّ بِالطَّرِيقِ.

وَلَمْ يُدْرِكِ الْأَمِيرُ «بِسَامِيتُ» مَا يَقْصِدُ إِلَيْهِ الشَّيْخُ، وَلَمْ يَتَبَيَّنْ فَائِدَةَ اشْتِعَالِ النَّارِ عَلَى الرَّمْلِ.

وَلَكِنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ فِي عِصْيَانِهِ، وَمُخَالَفَةِ نُصْحِهِ، بَعْدَ أَنْ تَوَسَّمَ فِيهِ الْإِخْلَاصَ وَالْعَطْفَ وَبُعْدَ النَّظَرِ، فَلَمْ يُقَصِّرْ فِي إِنْفَاذِ مَا نَصَحَهُ بِهِ فِي دِقَّةٍ وَإِحْكَامٍ.

وَلَا تَسَلْ عَمَّا اسْتَوْلَى عَلَى الْأَمِيرِ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالْعَجَبِ، حِينَ رَأَى — عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ — مَادَّةً صَافِيَةَ اللَّوْنِ، ذَاتَ بَرِيقٍ وَلَأْلَاءٍ، تَنْسَابُ مِنْ خِلَالِ الرَّمَادِ، كَمَا يَنْسَابُ الْجَدْوَلُ الرَّقْرَاقُ. وَسُرْعَانَ مَا تَجَمَّعَ السَّائِلُ وَانْعَقَدَ وَتَجَمَّدَ.

وَهُنَا ظَهَرَ الشَّيْخُ أَمَامَ الْأَمِيرِ، ثُمَّ تَحَوَّلَ — فِي أَقَلَّ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ — جِنِّيًّا مَهِيبَ الطَّلْعَةِ، رَائِعَ السَّمْتِ، وَقَدِ انْعَقَدَ عَلَيْهِ إِكْلِيلٌ مِنَ النُّورِ، وَأَحَاطَتْ بِهِ هَالَةٌ مِنَ الضِّيَاءِ.

ثُمَّ قَالَ لِلْأَمِيرِ: «أَتَعْرِفُ — يَا فَتَى — مَنْ أَنَا؟»

فَانْعَقَدَ لِسَانُ الْأَمِيرِ مِنْ فَرْطِ الْحَيْرَةِ.

فَقَالَ الْجِنِّيُّ: «طِبْ نَفْسًا — يَا وَلَدِي — وَقَرَّ عَيْنًا، أَنَا «أُوزُورِيسُ» جَالِبُ الدِّفْءِ وَالْخِصْبِ وَالرَّفَاهِيَةِ لِمِصْرَ وَمَا فِيهَا؛ أَرْضِهَا وَأَهْلِيهَا.

وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَخْتَبِرَ سَجَايَاكَ، وَأَتَعَرَّفَ مَزَايَاكَ، قَبْلَ أَنْ أَمْنَحَكَ الثَّرْوَةَ وَالرَّغَادَةَ، وَالْحَظَّ والسَّعَادَةَ.

فَلَمَّا رَأَيْتُ نَفْسَكَ تَفِيضُ بِالْمَحَبَّةِ وَالرَّحْمَةِ، أَيْقَنْتُ أَنَّكَ أَجْدَرُ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَأَحَقُّهُمْ بِالْمُسَاعَدَةِ.

وَقَدْ جَلَبْتُ لَكَ الْخَيْرَ كُلَّهُ، بَعْدَ أَنْ هَدَيْتُكَ إِلَى سِرِّ هَذِهِ الْمَادَّةِ الَّتِي طَلَبَهَا الْفِرْعَوْنُ. أَتَعْرِفُ مَاذَا تُسَمَّى هَذِهِ الْمَادَّةُ الْعَجِيبَةُ؟

إِنَّهَا الزُّجَاجُ. وَهَا هِيَ ذِي — كَمَا تَرَى — بَرَّاقَةٌ كَالذَّهَبِ، شَفَّافَةٌ كَمَاءِ الْيَنْبُوعِ، لَيِّنَةٌ كَالرَّصَاصِ، رَنَّانَةٌ كَالنُّحَاسِ.

وَفِي وُسْعِكَ — مُنْذُ الْيَوْمِ — أَنْ تَحْصُلَ عَلَى الزُّجَاجِ كُلَّمَا أَرَدْتَ، فَإِنَّ أَرْضَ «مِصْرَ» زَاخِرَةٌ بِمَادَّتِهِ.

وَلَنْ يُكَلِّفَكَ صُنْعُهُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَمْزُجَ الرَّمْلَ بِالنَّطْرُونِ، وَمَا أَكْثَرَ وُجُودَهُمَا فِي أَرْضِ هَذَا الْوَادِي، ثُمَّ تُوقِدُ النَّارَ عَلَيْهِمَا زَمَنًا طَوِيلًا — كَمَا عَلَّمْتُكَ اللَّيْلَةَ — فَإِذَا بِالزُّجَاجِ حَاضِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ.

هَلُمَّ يَا فَتَى فَخُذْ مَا تَمَّ صُنْعُهُ مِنْ أَلْوَاحِ الزُّجَاجِ، وَاغْسِلْهُ فِي النَّهْرِ، ثُمَّ قَدِّمْهُ إِلَى «فِرْعَوْنِ مِصْرَ» مَهْرًا لِزَوَاجِكَ.»

فَفَاضَ قَلْبُ الْأَمِيرِ «بِسَامِيتَ» سُرُورًا بِمَا وُفِّقَ إِلَيْهِ، وَامْتَلَأَتْ نَفْسُهُ عِرْفَانًا بِجَمِيلِ «أُوزُورِيسَ»؛ رَاعِي «مِصْرَ» وَحَارِسِهَا فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ.

وَمَا هَمَّ الْأَمِيرُ بِالْكَلَامِ، حَتَّى اسْتَخْفَى «أُوزُورِيسُ» وَغَابَ عَنْ نَاظِرِهِ. وَأَخَذَ الْأَمِيرُ أَلْوَاحَ الزُّجَاجِ الْبَدِيعَةَ الْمُلْقَاةَ عَلَى الْأَرْضِ، وَمَضَى بِهَا إِلَى مَلِكِ «طِيبَةَ»، بَعْدَ أَنْ غَسَلَهَا بِمَاءِ النَّهْرِ، وَقَدَّمَ لَهُ هَذِهِ الْمَادَّةَ الزُّجَاجِيَّةَ الْجَدِيدَةَ.

فَأُعْجِبَ «فِرْعَونُ» بِهَدِيَّتِهِ أَيَّمَا إِعْجَابٍ، وَابْتَهَجَ بِهَا أَيَّمَا ابْتِهَاجٍ، وَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَزْوِيجِهِ بِابْنَتِهِ.

ثُمَّ أَمَرَ «فِرْعَوْنُ مِصْرَ» بِإِنْشَاءِ أَفْرَانٍ كَبِيرَةٍ لِصُنْعِ الزُّجَاجِ عَلَى مُخْتَلِفِ أَنْوَاعِهِ. وَسُرْعَانَ مَا تَدَرَّجَتْ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ فِي طَرِيقِ التَّحْسِينِ، حَتَّى بَلَغَتْ مَا بَلَغَتْهُ مِنَ الْإِتْقَانِ، الَّذِي يَتَجَلَّى فِيمَا نَرَاهُ مِنْ بَدَائِعِ الْمَرَايَا وَالْأَوَانِي الْفَنِّيَّةِ.

وَمَا زَالَتْ صِنَاعَةُ الزُّجَاجِ تَرْقَى فِي مَدَارِجِ الْفَنِّ وَالتَّجْوِيدِ، حَتَّى وُفِّقَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَى اخْتِرَاعِ خُيُوطٍ دَقِيقَةٍ مِنَ الزُّجَاجِ، تُمَاثِلُ أَبْدَعَ أَنْوَاعِ الْحَرِيرِ رِقَّةً وَمَتَانَةً.

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

سَمَوَاتٌ مِنْ زُجَاجٍ

(١) سَمَاءُ «تُوتَ»

– لِمَاذَا قُلْتَ يَا أَبَتِ، إِنَّ مَا قَصَصْتَهُ عَلَيْنَا أَمْسِ أُسْطُورَتَانِ (قِصَّتَانِ خَيَالِيَّتَانِ)، وَلَمْ تَسْلُكْهُمَا فِي عِدَادِ الْقَصَصِ التَّارِيخِيِّ، كَأَنَّمَا تَسْتَكْثِرُ عَلَى الْمُصَادَفَاتِ أَنْ تَنْتَهِيَ بِاكْتِشَافِ الزُّجَاجِ؟

– لَسْتُ أَسْتَكْثِرُ عَلَى الْمُصَادَفَاتِ شَيْئًا يَا «ثَرْوَةُ»، وَلَكِنَّ مَا سَمِعْتُمُوهُ مِنِّي أُسْطُورَتَانِ، عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلَسْتُ أَشُكُّ فِي أَنَّ خَيَالَهُمَا قَدْ أَبْدَعَهُ قَصَصِيٌّ بَارِعٌ.

وَلَا أَدَلَّ عَلَى تَلْفِيقِهِمَا، وَاسْتِحَالَةِ تَصْدِيقِهِمَا، مِنْ أَنَّ الرَّمْلَ وَالنَّطْرُونَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَذُوبَا وَيَتَحَوَّلَا سَائِلًا بِمِثْلِ هَذِهِ السُّهُولَةِ الَّتِي سَمِعْتُمَاهَا.

فَلَا بُدَّ لِذَلِكَ مِنْ أَنْ تَرْتَفِعَ دَرَجَةُ الْحَرَارَةِ إِلَى حَدٍّ عَظِيمٍ، وَهَيْهَاتَ لِلنَّارِ الْعَادِيَّةِ أَنْ تَصْهَرْهُمَا وَتُذِيبَهُمَا، كَمَا تُحَاوِلُ الْأُسْطُورَتَانِ أَنْ تُوهِمَانَا.

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ، فَلَنْ تَخْلُوَ الْقِصَّتَانِ مِنْ فَائِدَةٍ.

– أَيَّ فَائِدَةٍ تَعْنِي أَكْثَرَ مِمَّا تَحْوِيَانِ مِنْ مُتْعَةِ الْخَيَالِ؟

– كُنْتُ أَتَوَقَّعُ مِنْكَ هَذَا السُّؤَالَ يَا «مَحْمُودُ».

فَاعْلَمْ — يَا عَزِيزِي — أَنَّ الْأُسْطُورَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَصَصْتُهُمَا عَلَيْكُمْ أَمْسِ، إِذَا عَجَزَتَا عَنْ إِرْشَادِنَا إِلَى مُخْتَرِعِ الزُّجَاجِ، فَلَنْ تَعْجِزَا عَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الصِّنَاعَةَ قَدِيمَةٌ، نَشَأَتْ فِي غَابِرِ الزَّمَانِ.

وَلَا أَدَلَّ عَلَى إِمْعَانِهَا فِي الْقِدَمِ مِنْ وُرُودِهَا فِي التَّوْرَاةِ؛ فَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ كَانُوا يَعْرِفُونَ صِنَاعَةَ الزُّجَاجِ فِي عَهْدِ «مُوسَى» عَلَيْهِ السَّلَامُ.

– وَلَيْسَ بِمُسْتَبْعَدٍ أَنْ يَكُونَ الْمِصْرِيُّونَ قَدِ اهْتَدَوا إِلَيْهَا قَبْلَ ذَلِكَ الْعَهْدِ بِزَمَنٍ بَعِيدٍ.

– ذَلِكَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ؛ فَقَدْ كَانَتْ «مِصْرُ» مُزْدَهِرَةً بِالْحَضَارَةِ مُنْذُ آلَافِ السِّنِينَ، وَقَدْ وَجَدَ الْبَاحِثُونَ فِي قُبُورِ «طِيبَةَ» وَ«مَنْفِيسَ» زُجَاجَاتٍ وَقَلَائِدَ، صِيغَتْ مِنَ الزُّجَاجِ مُلَوَّنًا وَمُذَهَّبًا وَمُزْدَانًا بِرَوَائِعِ النَّقْشِ وَبَدَائِعِ التَّصْوِيرِ.

– الْآنَ فَهِمْتُ لِمَاذَا سَاوَرَكَ الشَّكُّ فِي صِدْقِ الْأُسْطُورَةِ الَّتِي أَبْدَعَهَا الرُّوَاةُ، لِيُدَلِّلُوا بِهَا عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي انْتَهَتْ إِلَى كَشْفِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ فِي مَدِينَةِ «طِيبَةَ».

– وَالْآنَ عَرَفْنَا السَّبَبَ الَّذِي حَبَّبَ إِلَيْكَ أَنْ تَسْلُكَهُمَا فِي عِدَادِ الْأَسَاطِيرِ.

– كَانَ «أُوزُورِيسُ» — فِيمَا يَتَخَيَّلُهُ الْمُتَخَيِّلُونَ — يَجْمَعُ بَيْنَ الْمُلْكِ وَالْأُلُوهِيَّةِ، وَكَانَ بَارًّا بِشَعْبِهِ، مُتَفَانِيًا فِي إِسْعَادِهِ، وَقَدْ حَكَمَ «مِصْرَ» أَعْدَلَ حُكْمٍ، وَأَعَانَتْهُ زَوْجَتُهُ «إِيزِيسُ» عَلَى ذَلِكَ.

وَبَذَلَ الزَّوْجَانِ كُلَّ مَا يَمْلِكَانِ مِنْ جَهْدٍ فِي تَشْجِيعِ الْمَوْهُوبِينَ، وَرِعَايَةِ الْعَامِلِينَ، حَتَّى بَلَغَتْ «مِصْرُ» — فِي عَهْدِهِمَا — مَكَانَةً عَالِيَةً. وَكَانَ لِـ «أُوزُورِيسَ» أَخٌ حَسُودٌ!

– لَعَلَّكَ تَعْنِي أَخَاهُ «سِتْ» الَّذِي دَفَعَهُ الْحَسَدُ إِلَى قَتْلِ «أُوزُورِيسَ».

– فَهَلْ تَعْلَمُ مَاذَا صَنَعَتْ «إِيزِيسُ»؟

– اشْتَدَّ حُزْنُهَا عَلَى زَوْجِهَا، وَظَلَّتْ تُصَلِّي عَلَى جُثَّتِهِ، مُسْتَعِينَةً بِكُلِّ مَا عَرَفَتْهُ مِنْ فُنُونِ سِحْرِهَا، حَتَّى أَعَادَتْ إِلَيْهِ رُوحَهُ.

– وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى الْعَوْدَةِ إِلَى الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ، بَعْدَ أَنْ خَتَمَ حَيَاتَهُ فِيهِ.

– فَعَاشَ فِي السَّمَاءِ.

– ثُمَّ وَلَدَتْ «إِيزِيسُ» طِفْلَهَا «حُورَ». فَلَمَّا بَلَغَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ، انْتَقَمَ لِأَبِيهِ مِنْ قَاتِلِهِ، وَجَلَسَ عَلَى عَرْشِهِ.

– مَا أَكْثَرَ مَا نَسَجَهُ الْقَصَّاصُونَ فِي تَمْجِيدِ «أُوزُورِيسَ»!
– فَلَا عَجَبَ إِذَا نَسَبُوا إِلَيْهِ قِصَّةَ «مَدِينَةِ الزُّجَاجِ».
– كَمَا نَسَبُوا إِلَى غَيْرِهِ أَمْثَالَهَا مِنَ الْأَسَاطِيرِ.
– أَتَعْنِي أَنَّ هُنَاكَ أَسَاطِيرَ أُخْرَى عَرَضَتْ لِلْحَدِيثِ عَنِ الزُّجَاجِ؟
– لَا رَيْبَ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ غَلَا بَعْضُهُمْ فِي الْخَيَالِ وَأَسْرَفَ، فَتَمَثَّلَ مَدَائِنَ مِنَ الزُّجَاجِ، وَسَمَوَاتٍ مِنَ الزُّجَاجِ!
– أَتَذْكُرُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَسَاطِيرِ يَا أَبِي؟
– أَذْكُرُ الْكَثِيرَ، وَلَا أَنْسَاهُ.

أَلَمْ تَسْمَعُوا بِأَسْمَاءِ السَّاحِرَيْنِ: «تُوتَ»، وَأُخْتِهِ «فُسْتُقَةَ»، وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَعْلَامِ الْكَهَانَةِ وَالسِّحْرِ، الَّذِينَ حَفَلَتْ بِأَعَاجِيبِهِمُ الْأَسَاطِيرُ؟

أَلَمْ تَسْمَعُوا بِالسَّاحِرِ «رُومَانَ»: صَاحِبِ مَدَائِنِ الزُّجَاجِ وَالنُّحَاسِ وَالصَّخْرِ؟

أَلَمْ تَسْمَعُوا بِالسَّاحِرِ «يَاقُوتٍ»: صَاحِبِ «مَدِينَةِ الْيَاقُوتِ»؟

– مَا سَمِعْنَا بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا يَا أَبِي.
– أَمَّا أَنَا، فَقَرَأْتُ الْكَثِيرَ مِنْ عَجَائِبِ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ يَا أَبِي.
– لَعَلَّكَ قَرَأْتَهَا يَا «ثَرْوَةُ»، فِي قِصَّةِ «سَيْفِ الْيَمَنِ».
– مُنْذُ عَامَيْنِ. وَلَا أَزَالُ أَذْكُرُ وَقَائِعَهَا وَأَحْدَاثَهَا، كَأَنَّمَا انْتَهَيْتُ مِنْ قِرَاءَتِهَا الْيَوْمَ.
– مَنْ «سَيْفُ الْيَمَنِ» يَا «ثَرْوَةُ»؟
– هُوَ ابْنُ «ذِي يَزَنَ» مَلِكِ الْيَمَنِ الْعَظِيمِ.
– كُلُّنَا نَعْرِفُ مَنْ هُوَ «سَيْفُ الْيَمَنِ»، وَقَدْ حَفَلَ التَّارِيخُ بِطَائِفَةٍ مِنْ أَخْبَارِهِ، وَلَكِنَّنِي لَمْ أَقْرَأْ هَذِهِ الْقِصَّةَ الَّتِي قَرَأَهَا «ثَرْوَةُ».
– خَبِّرْ إِخْوَتَكَ يَا «ثَرْوَةُ» بِمَا تَذْكُرُ مِنْ قِصَّةِ السَّاحِرِ «تُوتَ» وَأُخْتِهِ السَّاحِرَةِ «فُسْتُقَةَ».
– كَانَ «تُوتُ» وَأُخْتُهُ «فُسْتُقَةُ» — فِيمَا يَقُولُ مُبْدِعُ الْقِصَّةِ — أَخَوَيْنِ شَقِيقَيْنِ، وَكَانَ «تُوتُ» مَاهِرًا فِي فُنُونِ الْكَهَانَةِ وَالسِّحْرِ، وَقَدْ وَقَفَ حَيَاتَهُ الطَّوِيلَةَ عَلَى الدَّرْسِ وَالِاطِّلَاعِ، حَتَّى أَصْبَحَ فِي شَيْخُوخَتِهِ كَبِيرَ السَّحَرَةِ فِي عَصْرِهِ.

ثُمَّ زَيَّنَ لَهُ شَيْطَانُ الْغُرُورِ — حِينَئِذٍ — أَنْ يَدَّعِيَ الْأُلُوهِيَّةَ، فَأَنْشَأَ سَمَاءً مِنْ زُجَاجٍ، وَزَيَّنَهَا بِالْكَوَاكِبِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَتِهِ، فَفُتِنَ بِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَغْبِيَاءِ. وَمَا زَالَ سَادِرًا فِي غَفْلَتِهِ، خَابِطًا فِي ضَلَالَتِهِ، حَتَّى سَمِعَ بِهِ «سَيْفُ الْيَمَنِ»، فَأَسْرَعَ إِلَى قَتْلِهِ، وَتَقْوِيضِ بِنَائِهِ، وَهَدْمِ سَمَائِهِ، وَتَخْلِيصِ النَّاسِ مِنْ شَرِّهِ وَبَلَائِهِ.

(٢) مَدِينَةُ «تُوتَ»

وَمَدِينَةُ الزُّجَاجِ — فِيمَا تَقُولُ الْأُسْطُورَةُ التُّوتِيَّةُ — مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ، لَا نَظِيرَ لَهَا فِي الْمَدَائِنِ، يَسْكُنُهَا كَاهِنٌ عَنِيدٌ، لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْكَهَانَةِ وَالسِّحْرِ.

وَقَدْ بَلَغَ بِهِ الطُّغْيَانُ وَالْعُتُوُّ أَنْ تَمَرَّدَ عَلَى خَالِقِهِ، وَاسْتَجَابَ إِلَى شَيْطَانِهِ، فَادَّعَى الْأُلُوهِيَّةَ.

وَقَدْ صَنَعَ فِي مَدِينَتِهِ الْعَجَائِبَ، وَأَجْرَى فِيهَا مَا شَاءَ مِنْ عُيُونٍ وَأَنْهَارٍ، وَجَنَّاتٍ حَافِلَةٍ بِأَطْيَبِ الثِّمَارِ، وَأَعْجَبِ الْأَزْهَارِ، وَجَعَلَ فَاكِهَتَهَا — بِسِحْرِهِ — تُثْمِرُ فِي كُلِّ آنٍ، وَأَزْهَارَهَا نَفَّاحَةَ الْعِطْرِ، زَاهِيَةَ الْأَلْوَانِ؛ وَأَقَامَ عَلَى مَدِينَتِهِ سَقْفًا عَالِيًا مِنَ الْبَلُّورِ، عَلَى هَيْئَةِ السَّمَاءِ، يُحِيطُ بِأَرْجَاءِ الْمَدِينَةِ إِحَاطَةَ السِّوَارِ بِالْمِعْصَمِ. وَأَدَارَ فِي أَفْلَاكِهَا كَوَاكِبَ وَنُجُومًا، وَأَطْلَعَ فِيهَا شَمْسًا وَقَمَرًا.

وَمِنْ عَجَائِبِ مَا يَرَى النَّاظِرُ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ تَنُّورٌ (فُرْنٌ) كَبِيرٌ مِنَ النُّحَاسِ، يَرْتَفِعُ لَهِيبُهُ، فَتَنْدَلِعُ مِنْهُ أَلْسِنَةٌ مِنَ النَّارِ، مُخْتَلِفَةٌ أَلْوَانُهَا.

– مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ التَّنُّورَ يَا أَبِي، بِالتَّنَانِيرِ الَّتِي يُصْهَرُ فِيهَا الزُّجَاجُ!

– مَا أَبْرَعَهَا مُلَاحَظَةً!

– وَأَقَامَ الْكَاهِنُ عَلَى أَسْوَارِ مَدِينَتِهِ ثَلَاثَمِائَةِ تِمْثَالٍ مِنَ النُّحَاسِ، عَلَى هَيْئَةِ الشُّخُوصِ الْآدَمِيَّةِ، وَنَقَشَ عَلَيْهَا طَلَاسِمَ سِحْرِهِ، وَثَبَّتَ فِي أَفْوَاهِهَا أَبْوَاقًا، وَنَصَبَ عَلَيْهَا رَئِيسًا، صَنَعَ تِمْثَالَهُ مِنَ الْحَدِيدِ، يَحْكُمُهَا وَيُصَرِّفُهَا عَلَى حَسَبِ إِرَادَةِ «تُوتَ»؛ وَهُوَ عَلَى قَدْرِ الْفِيلِ الْعَظِيمِ، وَفِي فَمِهِ بُوقٌ كَبِيرٌ، فَإِذَا حَلَّ بِالْمَدِينَةِ غَرِيبٌ، دَبَّتْ فِيهِ الرُّوحُ، وَعَادَتْ إِلَيْهِ الْحَرَكَةُ، فَنَفَخَ فِي بُوقِهِ، فَنَبَّهَ بِذَلِكَ التَّمَاثِيلَ الْأُخْرَى، فَنَفَخَتْ فِي أَبْوَاقِهَا مُجَلْجِلَةً، مُنْذِرَةً أَهْلَ الْمَدِينَةِ، قَائِلَةً: «حَذَارِ يَا أَهْلَ مَدِينَةِ «تُوتَ»؛ فَقَدْ جَاءَكُمْ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، وَهُوَ يُرِيدُ كَذَا وَكَذَا!»

وَقَدْ أَقَامَ السَّاحِرُ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ تِمْثَالَيْنِ كَبِيرَيْنِ مِنَ الْحِجَارَةِ الصَّلْدَةِ، مَنْحُوتَيْنِ عَلَى هَيْئَةِ أَسَدَيْنِ، تَدِبُّ فِيهِمَا الرُّوحُ كُلَّمَا رَأَيَا عَدُوًّا يُحَاوِلُ الْإِغَارَةَ عَلَى «مَدِينَةِ الزُّجَاجِ»، فَيُسْرِعَانِ إِلَى افْتِرَاسِهِ، بَعْدَ أَنْ يَسُدَّا دُونَهُ مَنَافِذَ الْفِرَارِ، وَيَأْخُذَا عَلَيْهِ مَسَالِكَ الْهَرَبِ.

(٣) سَمَاءُ «فُسْتُقَةَ»

– فَمَاذَا صَنَعَتْ أُخْتُهُ «فُسْتُقَةُ»، بَعْدَ أَنْ قَتَلَهُ «سَيْفُ الْيَمَنِ»؟

– كَانَتْ صَغِيرَةً فِي ذَلِكَ الْحِينِ، فَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى مُعَاوَنَةِ أَخِيهَا فِي حَرْبِهِ، وَخَشِيَتْ أَنْ يَبْطِشَ بِهَا «سَيْفُ الْيَمَنِ»، فَهَرَبَتْ إِلَى مَكَانٍ قَصِيٍّ (بَعِيدٍ)، وَلَقِيَتْ — فِي أَثْنَاءِ هَرَبِهَا — سَاحِرًا مِنْ أَصْدِقَاءِ أَخِيهَا «تَوتَ».

فَلَمَّا سَأَلَهَا عَنْهُ، أَخْبَرَتْهُ بِمَا صَنَعَهُ «سَيْفُ الْيَمَنِ» مِنْ قَتْلِ أَخِيهَا، وَتَقْوِيضِ عَرْشِهِ، وَهَدْمِ سَمَائِهِ.

فَاشْتَدَّ غَيْظُ السَّاحِرِ مِمَّا سَمِعَ، وَوَعَدَ «فُسْتُقَةَ» بِالِانْتِقَامِ مِنْ قَاتِلِ أَخِيهَا.

وَلَمْ يَمْضِ زَمَنٌ قَلِيلٌ، حَتَّى تَزَوَّجَ السَّاحِرُ بِـ «فُسْتُقَةَ»، وَظَلَّ يَتَعَهَّدُهَا بِالتَّعْلِيمِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، بَاذِلًا جُهْدَهُ فِي تَدْرِيبِهَا عَلَى السِّحْرِ، وَتَمْكِينِهَا مِنْ دَقَائِقِهِ، حَتَّى بَرَعَتْ فِي فُنُونِهِ.

وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ فَاقَتْ أُسْتَاذَهَا، بِمَا أَضَافَتْهُ مِنْ فُنُونِ سِحْرِهَا، وَلَمْ تَتَوَانَ فِي إِعْدَادِ الْوَسَائِلِ لِلِانْتِقَامِ مِنْ قَاتِلِ أَخِيهَا.

فَلَمَّا تَمَّ لَهَا مَا أَرَادَتْ، تَحَيَّنَتْ فُرْصَةَ غِيَابِ «سَيْفِ الْيَمَنِ» عَنْ مُلْكِهِ — فِي إِحْدَى حُرُوبِهِ الطَّاحِنَةِ — فَذَهَبَتْ إِلَى بَلَدِ أَخِيهَا «تُوتَ»، فَجَلَسَتْ عَلَى عَرْشِهِ، وَأَنْشَأَتْ سَمَاءً مِنَ الزُّجَاجِ أَعْظَمَ مِنْ سَمَائِهِ وَأَطْلَقَتْ عَلَيْهَا اسْمَهُ، وَهِيَ تَحْسَبُ أَنَّ كَيْدَهَا نَاجِحٌ، وَسَعْيَهَا رَابِحٌ.

وَمَا اسْتَقَرَّ بِهَا الْمُقَامُ، حَتَّى نَقَلَتْ سَمَاءَهَا — بِكُلِّ مَا تَحْوِيهِ مِنْ كَوَاكِبَ — إِلَى حَاضِرَةِ عَدُوِّهَا، وَرَاحَتْ تُمْطِرُهَا بِمَا تَحْوِيهِ سَمَاؤُهَا مِنْ صَوَاعِقَ وَرُجُومٍ، وَكَوَاكِبَ وَنُجُومٍ.

– فَهَلْ وُفِّقَتْ «فُسْتُقَةُ» فِي كَيْدِهَا؟

– هَيْهَاتَ أَنْ يُفْلِحَ كَيْدُ الْغَادِرِينَ.

لَقَدْ حَالَفَهَا النَّجَاحُ أَوَّلَ الْأَمْرِ، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ حَاقَ بِهَا الْغَضَبُ الْإِلَهِيُّ، وَانْتَهَتْ حَيَاتُهَا كَمَا تَنْتَهِي حَيَاةُ كُلِّ بَاغٍ ذَمِيمٍ.

– لَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ الْبَغْيَ مَرْتَعُهُ وَخِيمٌ!

– وَكَيْفَ انْتَهَتْ مُؤَامَرَتُهَا؟

– تَصَدَّى لَهَا سَاحِرٌ مِنْ أَعْوَانِ «سَيْفِ الْيَمَنِ»، قَوِيُّ الْجَنَانِ، ثَابِتُ الْإِيمَانِ، فَهَزَمَ بِسِحْرِهِ سِحْرَهَا، وَزَلْزَلَ بِفُنُونِهِ سَمَاءَهَا، وَرَدَّ إِلَيْهَا صَوَاعِقَهَا وَرُجُومَهَا، فَأَهْلَكَهَا بِمَا صَنَعَتْ يَدَاهَا، وَأَهْلَكَ مَعَهَا زَوْجَهَا.

– وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ!

– خَبِّرْنِي يَا أَبِي، مَا بَالُ مُبْدِعِ الْأُسْطُورَةِ يَخْتَارُ لَهَا اسْمَ «تُوتَ»؟

– لَسْتُ أَفْهَمُ مَا تَعْنِيهِ يَا «مَحْمُودُ» بِهَذَا السُّؤَالِ.

– أَلَا تَظُنُّهُ يَعْنِي بِأُسْطُورَتِهِ «تُوتَ عَنْخَ آمُونَ» «فِرْعَوْنَ مِصْرَ» الْمَعْرُوفَ؟

– مَا أَعْجَبَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ خَيَالُكَ يَا «مَحْمُودُ»!

– أَلَيْسَ هَذَا الْفَرْضُ مُحْتَمَلًا؟ وَهَلْ تَسْتَبْعِدُ أَنْ تَلْحَقَ هَذِهِ الْأُسْطُورَةُ بِأَمْثَالِهَا مِمَّا نَسَبُوهُ إِلَى «أُوزُورِيسَ» وَغَيْرِهِ مِنْ فَرَاعِنَةِ «مِصْرَ»؟

– مَنْ يَدْرِي؟ إِنَّهَا — عَلَى كُلِّ حَالٍ — أُسْطُورَةٌ، خَلَطَ الْعَامَّةُ مُنْذُ قَدِيمِ الزَّمَانِ بَيْنَ أَسْمَائِهَا وَأَحْدَاثِهَا. وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ، فَطَالَمَا نَسَبَ الْقُصَّاصُ إِلَى كَهَنَةِ «مِصْرَ» وَفَرَاعِينِهَا طَرَائِفَ مِمَّا أَبْدَعُوهُ مِنَ الْأَسَاطِيرِ فِي هَذَا الْبَابِ؛ لِيُدَلِّلُوا بِهَا عَلَى مَا تَمَيَّزَ بِهِ قُدَمَاءُ الْمِصْرِيِّينَ مِنْ بَرَاعَةٍ وَافْتِنَانٍ فِي صُنْعِ الزُّجَاجِ، عَلَى اخْتِلَافِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ.

وَلَوْلَا مَا شَهِدَهُ الرُّوَاةُ مِنْ بَرَاعَتِهِمْ، لَمَا تَمَثَّلُوا قُدْرَتَهُمْ عَلَى إِنْشَاءِ سَمَاءٍ مِنْ زُجَاجٍ، مَصَابِيحُهَا مِنَ النُّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ، تَدُورُ فِي أَفْلَاكٍ وَأَبْرَاجٍ.

– كَيْفَ سَبَحَ خَيَالُهُمْ فِي هَذِهِ الْآفَاقِ الْعَجِيبَةِ؟

– مَنْ يَدْرِي؟ فَكَمْ مِنْ حَضَارَاتٍ قَدِيمَةٍ طُوِيَتْ وَانْدَثَرَتْ مُنْذُ آلَافِ السِّنِينَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ آثَارِهَا إِلَّا أَخْيِلَةٌ وَأَقَاصِيصُ.

– أَتَعْنِي أَنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَسَاطِيرِ، إِنَّمَا تُعَبِّرُ عَنْ حَقَائِقَ مَطْوِيَّةٍ، ذَهَبَتْ بِذَهَابِ تِلْكَ الْحَضَارَاتِ؟

– إِلَيْكُمْ مَثَلًا يُوضِّحُ لَكُمْ مَا أَعْنِيهِ:

لَقَدْ بَلَغَتْ حَضَارَتُنَا الْآنَ مَبْلَغًا فَاقَ مَا تَخَيَّلَهُ الْأَقْدَمُونَ، وَأَصْبَحَ لَدَيْنَا مِنْ عَجَائِبِ الْمُخْتَرَعَاتِ مَا لَمْ يَخْطُرْ بِخَيَالِ مُتَخَيِّلٍ، فَإِذَا عَصَفَتْ بِعَالَمِنَا الْأَرْضِيِّ الْمُتَحَضِّرِ — لَا قَدَّرَ

اللهُ — حَرْبٌ طَاحِنَةٌ، وَأَطَاحَتِ الْقَنَابِلُ الذَّرِّيَّةُ، وَأَمْثَالُهَا مِنَ الْمُهْلِكَاتِ، بِالْحَضَارَةِ كُلِّهَا، فَمَاذَا يَبْقَى مِنْ مَعَالِمِ الْحَضَارَةِ؟

– لَا يَبْقَى مِنْ حَقَائِقِهَا، لِلْأَجْيَالِ الْقَادِمَةِ، غَيْرُ أَخْيِلَةٍ وَأَسَاطِيرَ، لَا يَسْتَطِيعُ سَامِعُهَا أَنْ يُصَدِّقَهَا، وَرُبَّمَا حَسِبَ رُوَاتَهَا مِنْ غُلَاةِ الْمُتَخَيِّلِينَ.

– الْآنَ فَهِمْتَ مَا أَعْنِيهِ. وَلَنْ يَجْرُؤَ أَحَدٌ — حِينَئِذٍ — عَلَى إِسْنَادِ عَجَائِبِ الْمُخْتَرَعَاتِ لِغَيْرِ السَّحَرَةِ وَحْدَهُمْ؛ لِأَنَّ الْعُقُولَ لَنْ تُصَدِّقَهَا، مَهْمَا أَقْسَمَ شَاهِدُوهَا عَلَى صِدْقِهِمْ فِي رِوَايَتِهَا.

– وَلَهُمُ الْعُذْرُ فِي شَكِّهِمْ وَارْتِيَابِهِمْ، وَلَوْلَا أَنَّنَا نُشَاهِدُ عَجَائِبَ الْعِلْمِ وَمُعْجِزَاتِ الصِّنَاعَةِ بِأَعْيُنِنَا، لَحَسِبْنَاهَا أَخْيِلَةَ مُتَخَيِّلٍ، وَأَوْهَامَ وَاهِمٍ.

– لَا رَيْبَ فِي ذَلِكَ يَا أَبِي، وَهَيْهَاتَ أَنْ يُغْنِيَ السَّمَاعُ عَنِ الْمُشَاهَدَةِ.

– وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْعِيَانِ.

– لَقَدْ فَتَحْتَ يَا أَبِي، آفَاقًا جَدِيدَةً مِنَ التَّفْكِيرِ، لَمْ تُتَحْ لَنَا مِنْ قَبْلُ.

(٤) سَمَاءُ «رُومَانَ»

– وَلَوْ تَأَمَّلْتُمْ مَا أَبْدَعَهُ الْقَصَّاصُونَ مِنْ عَجَائِبِ الْخَيَالِ، حِينَ تَحَدَّثُوا عَنْ سَمَاءِ «رُومَانَ»، لَرَأَيْتُمْ عَجَبًا.

– لَقَدْ عَرَفْنَا سَمَاءَ «تُوتَ»، وَسَمَاءَ «فُسْتُقَةَ»، فَمَا سَمَاءُ «رُومَانَ»؟

– كَانَ «رُومَانُ»، فِيمَا تُخْبِرُنَا الْأُسْطُورَةُ، مِنْ أَفْذَاذِ السَّحَرَةِ فِي عَصْرِهِ، وَقَدِ اسْتَطَاعَ — بِمَهَارَتِهِ — أَنْ يُنْشِئَ سَمَاءً زُجَاجِيَّةً فَوْقَ حَاضِرَةِ مُلْكِهِ.

فَلَمَّا تَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ، عَلَّقَ فِي سَمَائِهِ مَصَابِيحَ مِنَ الْكَوَاكِبِ، تَتَلَأْلَأُ لَيْلًا وَنَهَارًا، كَمَا يَتَلَأْلَأُ الْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالشَّمْسُ. وَوَكَّلَ بِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنْهَا مَارِدًا مِنَ الْجِنِّ، يُحَرِّكُهُ وَيُدِيرُهُ.

– لَعَلَّهُ كَانَ يُضِيئُهَا بِالْكَهْرَبَا يَا أَبِي، فَلَا أَسْتَبْعِدُ أَنْ يَكُونَ الْقُدَمَاءُ قَدِ اهْتَدَوْا إِلَيْهَا، ثُمَّ ضَاعَ سِرُّهَا فِيمَا ضَاعَ، وَانْدَثَرَ فِيمَا بَادَ مِنْ حَضَارَتِهِمْ؟

– هُوَ افْتِرَاضٌ يَحْتَمِلُ النَّفْيَ وَالْإِثْبَاتَ، عَلَى كُلِّ حَالٍ.

– وَكَانَ «رُومَانُ»، فِيمَا تَقُولُ الْأُسْطُورَةُ، يَسْكُنُ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْعَالَمِ تُدْعَى «الْفَجَّ الْأَعْظَمَ».

– مَا مَعْنَى الْفَجِّ؟

– هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ الْوَاضِحُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ.

– مَا أَبْرَعَهُ خَيَالًا! لَقَدْ عَرَفَ مُبْدِعُ الْقِصَّةِ كَيْفَ يَخْتَارُ لِسَاحِرِهِ أَلْيَقَ مَكَانٍ لِمَدِينَتِهِ.

– وَلَمْ يَكْتَفِ «رُومَانُ» بِإِنْشَاءِ «مَدِينَةِ الزُّجَاجِ» لِنَفْسِهِ، فَأَنْشَأَ لِوَلَدِهِ «مَدِينَةَ النُّحَاسِ»!

– مَا اسْمُ وَلَدِهِ؟

– اسْمُهُ «سُقْرَاقُ»، وَكَانَ مِثَالًا لِلدَّمَامَةِ وَقُبْحِ الصُّورَةِ، وَقَدْ تَمَثَّلَ رَاوِي الْقِصَّةِ هَيْئَتَهُ عَلَى صُورَةِ ضَبُعٍ بَشِعَةٍ!

– لَقَدْ قَرَأْتُ قِصَّةَ «مَدِينَةِ النُّحَاسِ»، فِي أَسَاطِيرِ «أَلْفِ لَيْلَةٍ»، فَلَمْ أَعْثُرْ فِيهَا عَلَى أَثَرٍ لِهَذَيْنِ السَّاحِرَيْنِ.

– إِنَّ «مَدِينَةَ النُّحَاسِ»، الَّتِي قَرَأْتَهَا فِي «أَلْفِ لَيْلَةٍ»، غَيْرُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الَّتِي تَقْرَؤُهَا فِي قِصَّةِ «سَيْفِ الْيَمَنِ».

وَلَيْسَ بَيْنَ الْقِصَّتَيْنِ اشْتِرَاكٌ فِي غَيْرِ الِاسْمِ.

أَمَّا أَبْطَالُهُمَا وَأَحْدَاثُهُمَا وَعَصْرَاهُمَا فَمُتَبَايِنَةٌ أَشَدَّ التَّبَايُنِ، مُخْتَلِفَةٌ أَشَدَّ الِاخْتِلَافِ، وَقَدْ زَعَمَ رُوَاةُ الْقِصَّةِ الْأُولَى أَنَّهَا حَدَثَتْ فِي زَمَنِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَزَعَمَ رُوَاةُ الثَّانِيَةِ أَنَّهَا حَدَثَتْ فِي عَصْرِ «الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ».

– وَلَكِنْ، أَيُّ خَيَالٍ اسْتَوْلَى عَلَى عَقْلِ «تُوتَ» وَ«رُومَانَ» وَ«فُسْتُقَةَ» وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمَغْرُورِينَ، فَزَيَّنَ لَهُمْ أَنْ يَدَّعُوا الْأُلُوهِيَّةَ؟

– مَتَى سُلِبَ الْإِنْسَانُ الْعَقْلَ لَمْ يُسْتَغْرَبْ مِنْهُ شَيْءٌ!

– قُلْ فِي زَمَنِ الْجَاهِلِيَةِ مَا شِئْتَ!

– مَاذَا؟ إِنَّ الْجُنُونَ لَمْ يَنْقَطِعْ فِي أَيِّ عَصْرٍ مِنَ الْعُصُورِ!

(٥) قَمَرُ «الْقَصَّارِ»

– أَتَعْنِي أَنَّ هُنَاكَ مَنِ ادَّعَى الْأُلُوهِيَّةَ، فِي غَيْرِ زَمَنِ الْجَاهِلِيَّةِ؟

– هُنَالِكَ كَثِيرُونَ، وَلَعَلَّ «مَحْمُودًا» يَذْكُرُ لَنَا مَا حَدَّثَهُ بِهِ أُسْتَاذُ التَّارِيخِ عَنِ «الْقَصَّارِ الْأَعْوَرِ»!

– مَا مَعْنَى «الْقَصَّارِ»؟

– هُوَ الَّذِي يَدُقُّ الثَّوْبَ وَيَصْبُغُهُ.

– فِي أَيِّ عَصْرٍ نَشَأَ «الْقَصَّارُ الْأَعْوَرُ»؟
– فِي عَصْرِ الْخَلِيفَةِ «الْمَهْدِيِّ».
– وَفِي أَيِّ بَلَدٍ عَاشَ؟
– خَلْفَ «بُخَارَى» وَرَاءَ النَّهْرِ.
– أَكَانَ يُسَمَّى «الْقَصَّارَ الْأَعْوَرَ»؟
– كَانَ يُسَمَّى «ثَوْرَ بْنَ عُمَيْرَةَ»، أَمَّا «الْقَصَّارُ الْأَعْوَرُ» فَهُوَ لَقَبٌ أُطْلِقَ عَلَيْهِ، كَمَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ أَيْضًا لَقَبُ «الْمُقَنَّعِ».
– لِمَاذَا أَطْلَقُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ اللَّقَبَ؟
– لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ عَمِلَ لِنَفْسِهِ وَجْهًا مِنْ ذَهَبٍ، اتَّخَذَهُ لَهُ قِنَاعًا كُلَّمَا خَرَجَ.
– فَمَا حَاجَتُهُ إِلَيْهِ؟
– كَانَ يَتَرَاءَى لَهُمْ بِهِ، لِيُوهِمَهُمْ أَنَّهُ إِلَهٌ.
– كَيْفَ زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لِذَلِكَ الصُّعْلُوكِ أَنْ يَرْكَبَ هَذَا الْمَرْكَبَ الصَّعْبَ؟
– شَجَّعَهُ عَلَى التَّمَادِي فِي دَعْوَاهُ، مَا وَجَدَهُ مِنْ تَصْدِيقِ الْحَمْقَى وَالْمَجَانِينِ لِمَا ادَّعَاهُ.
– كَيْفَ انْخَدَعُوا بِهِ؟
– عَمِلَ لَهُمْ قَمَرًا فَوْقَ جَبَلٍ، ارْتِفَاعُهُ فَرَاسِخُ، ثُمَّ أَطْلَقَهُ فِي الْجَوِّ، تَشْبِيهًا لِلنَّاسِ وَتَلْبِيسًا.
– مِمَّ صَنَعَ قَمَرَهُ؟ أَمِنْ زُجَاجٍ صَنَعَهُ؟
– خَيَّلَهُ لِلنَّاسِ مِنَ انْعِكَاسِ شُعَاعِ الزِّئْبَقِ.
– فَكَيْفَ خُتِمَتْ حَيَاتُهُ؟
– كَمَا خُتِمَتْ حَيَاةُ كُلِّ دَعِيٍّ أَفَّاكٍ.
– لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَهْلَكَهُ الْخَلِيفَةُ «الْمَهْدِيُّ»، وَعَجَّلَ بِرُوحِهِ إِلَى النَّارِ.
– لَقَدْ لَقِيَ مَا هُوَ جَدِيرٌ بِهِ مِنْ شَقَاءٍ!
– وَحَلَّ بِهِ أَعْدَلُ جَزَاءٍ.

الْفَصْلُ الْخَامِسُ

الزُّجَاجُ فِي الزَّمَنِ الْغَابِرِ

– مَا أَبْدَعَ مَا سَمِعْنَاهُ لَيْلَةَ أَمْسِ مِنْ رَائِعِ الْأَسَاطِيرِ!

– كُنَّا نَحْسَبُ أَنَّ هُنَاكَ مَدِينَةً وَاحِدَةً لِلزُّجَاجِ، فَإِذَا بِنَا نَسْمَعُ عَنْ مَدَائِنَ كَثِيرَةٍ، جَدِيرَةٍ بِهَذَا الِاسْمِ.

– كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الصَّوَابِ أَنْ تَقُولَ:

إِنَّكَ سَمِعْتَ أَسَاطِيرَ عَنْ مَدَائِنَ مُخْتَلِفَةٍ!

– مَنْ يُدْرِينَا؟ لَعَلَّهَا لَا تَعْنِي غَيْرَ مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ.

– مَاذَا تَعْنِي؟

– إِنَّ رُوَاةَ الْأَسَاطِيرِ يَخْلِطُونَ، كَمَا قُلْتُ لَكُمْ، بَيْنَ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْدَاثِ وَالْعُصُورِ.

وَلَكِنْ تَبْقَى بَعْدَ ذَلِكَ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ، هِيَ أَنَّ شُهْرَةَ «مِصْرَ» بِصِنَاعَةِ الزُّجَاجِ، هِيَ الَّتِي أَوْحَتْ إِلَى مُبْدِعِي الْأَسَاطِيرِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَخْيِلَةِ الشَّائِقَةِ.

– الْآنَ فَهِمْتُ مَا تَعْنِيهِ.

– وَمِنَ الْمُحَقَّقِ أَنَّ «طِيبَةَ» قَدْ عَرَفَتِ الزُّجَاجَ مُنْذُ أَقْدَمِ الْعُصُورِ، كَمَا قُلْتُ لَكُمْ أَمْسِ.

– لَوْلَا ذَلِكَ، لَمَا أَطْلَقَتْ عَلَيْهَا الْأَسَاطِيرُ اسْمَ: «مَدِينَةِ الزُّجَاجِ».

– لَقَدْ أَمْتَعَنَا «ثَرْوَةُ» بِمَا حَدَّثَنَا بِهِ عَنْ مَدَائِنِ الزُّجَاجِ، وَلَكِنَّهُ نَسِيَ أَنْ يُحَدِّثَنَا عَنْ مَدِينَةِ «الْيَاقُوتِ» الَّتِي أَنْشَأَهَا السَّاحِرُ «يَاقُوتٌ».

– مَا أَشْوَقَنَا إِلَى سَمَاعِ هَذِهِ الْقِصَّةِ! وَلَكِنْ خَبِّرْنِي يَا أَبِي: كَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّ صِنَاعَةَ الزُّجَاجِ قَدِ اخْتَصَّتْ بِهَا مَدِينَةُ «طِيبَةَ»؟

مَا أَظُنُّكَ قَدِ اعْتَمَدْتَ عَلَى الْأَسَاطِيرِ — وَحْدَهَا — فِي الِاسْتِدْلَالِ عَلَى ذَلِكَ!

– كَلَّا! لَمْ أَعْتَمِدْ عَلَى الْأَسَاطِيرِ وَحْدَهَا، بَلِ اعْتَمَدْتُ عَلَى مَا وَجَدَهُ الْبَاحِثُونَ فِيهَا مِنْ طَرَائِفِ الْآثَارِ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَى أَرْبَعَةِ آلَافِ عَامٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ، وَقَدْ رَأَوْا عَلَيْهَا نُقُوشًا تُمَثِّلُ جَمَاعَةً مِنَ الْعُمَّالِ يَعْمَلُونَ فِي نَفْخِ الزُّجَاجِ، أَمَامَ أَفْرَانٍ مُرْتَفِعَةٍ، تُمَاثِلُ أَفْرَانَ عَصْرِنَا الْحَاضِرِ.

وَقَدْ حَفَلَ مُتْحَفُ «بِرْلِينَ» بِبَعْضِ طَرَائِفِ الزُّجَاجِ الْمِصْرِيِّ الْقَدِيمِ، كَمَا حَفَلَ غَيْرُهُ مِنَ الْمَتَاحِفِ فِي مُخْتَلِفِ الْبُلْدَانِ بِمِثْلِ هَذِهِ الطَّرَائِفِ.

عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْمُؤَرِّخِينَ لَا يَزَالُونَ يُسَاوِرُهُمُ الشَّكُّ فِي أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ الْقُدَمَاءَ كَانُوا يَعْرِفُونَ طَرِيقَةَ نَفْخِ الزُّجَاجِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ مَاسُورَةَ الزُّجَاجِ لَمْ تُخْتَرَعْ إِلَّا فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ قَبْلَ الْمِيلَادِ، وَأَنَّ الْفِينِيقِيِّينَ اسْتَعْمَلُوهَا بِمَدِينَةِ «صَيْدَا».

وَيَقُولُونَ إِنَّ هَذِهِ النُّقُوشَ كَانَتْ لِصِنَاعَةِ صَهْرِ النُّحَاسِ وَالْبُرُنْزِ.

– إِذَا صَحَّ ذَلِكَ — وَهُوَ صَحِيحٌ بِلَا شَكٍّ — فَإِنَّ الْمِصْرِيِّينَ كَانُوا أَوَّلَ مَنِ اهْتَدَى إِلَى تَعَرُّفِ أَسْرَارِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ، وَاكْتِنَاهِ دَقَائِقِهَا.

– ذَلِكَ مَا تُثْبِتُهُ الْآثَارُ، وَتُؤَيِّدُهُ النُّصُوصُ، وَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ رَأْيُ الْبَاحِثِينَ، وَقَدْ حَالَفَ الْمِصْرِيِّينَ التَّوْفِيقُ، فَتَدَرَّجُوا مِنَ الزُّجَاجِ الْعَادِيِّ، إِلَى الزُّجَاجِ الْمُلَوَّنِ.

– لَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ تُرْبَةَ «مِصْرَ» تَحْتَوِي جَمِيعَ الْعَنَاصِرِ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا الزُّجَاجُ إِذَا امْتَزَجَتْ.

– الْآنَ وَضَحَ مَا تَهْدِفُ إِلَيْهِ الْأُسْطُورَةُ مِنْ صِدْقٍ.

– لَا تَنْسَ أَنَّ الْأَسَاطِيرَ مِرْآةٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْحَقَائِقِ.

أَعْنِي أَنَّ أَغْلَبَ مَا نَقْرَأُ مِنْ أَسَاطِيرَ، إِنَّمَا هُوَ — كَمَا قُلْتُ لَكَ — صُورَةٌ خَيَالِيَّةٌ، تُعَبِّرُ بِهَا الشُّعُوبُ عَنْ حَقَائِقَ وَاقِعَةٍ، كَمَا رَأَيْتَ فِيمَا قَصَصْتُهُ عَلَيْكَ.

– تَعْنِي أَنَّهُمْ يُلْبِسُونَهَا ثَوْبَ الْخَيَالِ؟

– وَيَصُوغُونَهَا فِي قَالَبٍ قَصَصِيٍّ بَارِعٍ، لِيَشُوقَ سَمَاعُهَا الْآذَانَ، عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ.

– ذَلِكَ حَقٌّ، لَا مِرَاءَ!

– لَقَدْ بَلَغَتْ «مِصْرُ» مِنَ الْحَضَارَةِ وَالرُّقِيِّ وَالِافْتِنَانِ فِي صُنْعِ الزُّجَاجِ مَبْلَغًا عَظِيمًا، فَاسْتَخْدَمَهُ الْمِصْرِيُّونَ فِي تَزْيِينِ حَدَائِقِهِمْ.
– لَسْتُ أَدْرِي: كَيْفَ زَيَّنُوا بِهِ حَدَائِقَهُمْ؟
– رَوَى بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّ «طِيبَةَ» كَانَ بِهَا أَعْمِدَةٌ زُجَاجِيَّةٌ مُضِيئَةٌ.
– مَعْنَى هَذَا أَنَّهَا كَانَتْ مُجَوَّفَةً وَمُضَاءَةً مِنَ الدَّاخِلِ، فَهِيَ أَشْبَهُ بِمَا نَرَاهُ مِنْ أَمْثَالِهَا فِي شَوَارِعِنَا عِنْدَمَا تُضَاءُ.
– عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْبَاحِثِينَ أَظْهَرُوا شَكَّهُمْ فِي أَنَّ «طِيبَةَ» كَانَ بِهَا أَعْمِدَةٌ زُجَاجِيَّةٌ مُضِيئَةٌ، وَرَأَوْا أَنَّ صِنَاعَةَ الزُّجَاجِ عِنْدَ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ لَمْ تَتَعَدَّ صُنْعَ آنِيَةِ الزِّينَةِ وَحُلِيِّهَا.
– لَعَلَّ رُوَاةَ الْأَسَاطِيرِ — الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ بَعْضَ الْكَهَنَةِ وَالْفَرَاعِنَةِ قَدْ أَنْشَئُوا سَمَوَاتٍ مِنَ الزُّجَاجِ، وَأَنَارُوهَا بِمَصَابِيحَ مِنَ الْكَوَاكِبِ — قَدِ اسْتَوْحَوْا خَيَالَهَا مِنْ هَذِهِ الْحَقَائِقِ التَّارِيخِيَّةِ الثَّابِتَةِ، وَلَعَلَّهُمْ — لَمَّا عَجَزُوا عَنْ فَهْمِ أَسْرَارِهَا — نَسَبُوهَا إِلَى الْجِنِّ.
– لَقَدْ رَأَيْتُمْ، عَلَى كُلِّ حَالٍ، مَدَى مَا أَحْرَزَتْهُ «مِصْرُ» مِنْ نَجَاحٍ فِي صُنْعِ الزُّجَاجِ.
– أَذْكُرُ أَنَّنِي قَرَأْتُ، فِي بَعْضِ كُتُبِ التَّارِيخِ، أَنَّ صِنَاعَةَ الزُّجَاجِ كَانَتْ فِي بِلَادِ «فَارِسَ» ذَائِعَةً، وَاسِعَةَ الِانْتِشَارِ.
– ذَلِكَ حَقٌّ يَا عَزِيزِي، وَقَدْ رَأَى سُفَرَاءُ الْيُونَانِ، الَّذِينَ وَفَدُوا عَلَى مَلِكِ «فَارِسَ»، مِنْ طَرَائِفِ الْآنِيَةِ وَالْأَقْدَاحِ الزُّجَاجِيَّةِ، مَا أَثَارَ دَهْشَتَهُمْ وَهُمْ يَتَغَدَّوْنَ عَلَى مَائِدَةِ الْمَلِكِ.
– تَعْنِي أَنَّ «فَارِسَ» كَانَتْ أَيْضًا مِمَّنْ أَحْرَزَ قَصَبَ السَّبْقِ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ.
– لَمْ تَنْفَرِدْ «فَارِسُ» بِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ، وَلَمْ تَكُنْ وَقْفًا عَلَى أَهْلِهَا وَحْدَهُمْ، فَقَدْ عَرَفَهَا «الرُّومَانُ» كَذَلِكَ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ.
– مَتَى عَرَفَهَا «الرُّومَانُ»؟
– مُنْذُ أَوَّلِ عَهْدِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ.
وَلَمْ تَلْبَثْ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ النَّاشِئَةُ أَنِ اتَّسَعَتْ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ، وَزَادَ انْتِشَارُ الْمَصَانِعِ، حَتَّى أَصْبَحَتْ — لِكَثْرَتِهَا — تَشْغَلُ حَيًّا بِأَكْمَلِهِ.
– وَقَدْ بَرَعَ صُنَّاعُ الرُّومَانِ، فِي هَذَا الْبَابِ، بَرَاعَةً اسْتَرْعَتْ إِعْجَابَ أَحَدِ حُكَّامِ «رُومَةَ»، وَأَغْرَتْهُ بِتَشْيِيدِ مَسْرَحٍ، طَبَقَتُهُ الْأُولَى مِنَ الزُّجَاجِ.

– وَهَلْ نَجَحَ الْحَاكِمُ فِي تَحْقِيقِ مَا أَرَادَ؟
– أَوْفَى نَجَاحٍ.
– أَتَذْكُرُ اسْمَهُ؟
– اسْمُهُ: «سِكُورُس».
– شَدَّ مَا تُسْعِدُنَا يَا أَبَتَاهُ، بِمَا تُمْتِعُنَا بِهِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ التَّارِيخِيَّةِ الشَّائِقَةِ.
– وَقَدْ وَجَدُوا مِنْ زُجَاجِ بَعْضِ النَّوَافِذِ مَا يُمَاثِلُ مَا لَدَيْنَا الْيَوْمَ.
– فِي أَيِّ الْمُدُنِ وَجَدُوهَا!
– فِي «بُومْبِي» و«هَرْكُولانُومَ».
– إِذَا لَمْ تَخْدَعْنِي ذَاكِرَتِي، فَإِنَّ هَاتَيْنِ الْمَدِينَتَيْنِ قَدْ طَمَرَهُمَا بُرْكَانُ «فِيزُوفَ» عَامَ ٧٩ قَبْلَ الْمِيلَادِ، فِي إِحْدَى ثَوْرَاتِهِ.
– لَقَدْ صَدَقَتْ ذَاكِرَتُكَ يَا «ثَرْوَةُ».
– مَا دَامُوا قَدْ وُفِّقُوا إِلَى صُنْعِ زُجَاجِ نَوَافِذِهِمْ عَلَى غِرَارِ مَا نَصْنَعُ مِنْ زُجَاجٍ، فَهُمْ بِلَا رَيْبٍ جَدِيرُونَ بِالْإِعْجَابِ.
– عَلَى أَنَّنِي قَرَأْتُ رَأْيًا لِبَعْضِ الْبَاحِثِينَ يَنْفِي هَذَا الرَّأْيَ، وَيُؤَكِّدُ أَنَّ زُجَاجَ النَّوَافِذِ لَمْ يُعْرَفْ إِلَّا فِي الْقَرْنِ الثَّالِثَ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ.
– وَيَقُولُ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ إِنَّ أَوَّلَ كَنِيسَةٍ اسْتَخْدَمَتِ الزُّجَاجَ الْمُلَوَّنَ كَانَتْ كَنِيسَةَ «أَيَا صُوفْيَا».
– مَا أَعْجَبَ مَا تَقُولَ يَا أَبِي!
– وَلَا تَنْسَوْا أَنَّ الْأَقْدَاحَ الزُّجَاجِيَّةَ الْمَنْحُوتَةَ كَانَتْ مَعْدُودَةً، فِي تِلْكَ الْأَزْمِنَةِ الْغَابِرَةِ، مِنْ نَفَائِسِ الطُّرَفِ الْغَالِيَةِ.
– كُلَّمَا نَدَرَ الشَّيْءُ غَلَتْ قِيمَتُهُ.
– لَا تَعْجَبُوا، إِذَا عَلِمْتُمْ، أَنَّ «نِيرُونَ» قَدْ حَصَلَ عَلَى قَدَحَيْنِ مِنَ الْأَقْدَاحِ الزُّجَاجِيَّةِ ذَوَاتِ الْآذَانِ الَّتِي صُنِعَتْ فِي مِصْرَ، بَعْدَ أَنِ اشْتَرَاهَا بِآلَافٍ مِنَ الدَّنَانِيرِ.
– إِذَا صَحَّ ذَلِكَ فَهُوَ دَلَالَةٌ عَلَى عُلُوِّ شَأْنِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ فِي مِصْرَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَتَمَكُّنِ الْمِصْرِيِّينَ مِنْ تَجْوِيدِهَا.
– وَكَانَ «نِيرُونُ»، كَمَا تَعْلَمُونَ، مِمَّنْ يُفْقِدُهُ الْغَضَبُ رُشْدَهُ، فَلَا يُبَالِي الْعَوَاقِبَ.
– كَانَ مَغْلُوبًا عَلَى أَعْصَابِهِ.

– وَقَدِ اسْتَبَدَّ بِهِ الْغَضَبُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَحَطَّمَ قَدَحًا مِنْهُمَا.
– مَا أَقْبَحَ الْغَضَبَ، وَأَجْمَلَ الْحِلْمَ!
– كَانَ تَحْطِيمُ ذَلِكَ الْقَدَحِ مِنَ الْخَسَائِرِ الْفَادِحَةِ.
– لَا رَيْبَ أَنَّهُ نَدِمَ عَلَى ذَلِكَ.
– وَمَاذَا يُجْدِي النَّدَمُ؟ أَتُرَاهُ يُعَوِّضُ صَاحِبَهُ مِمَّا أَفْقَدَهُ الْغَضَبُ؟
– هَيْهَاتَ، هَيْهَاتَ!
– وَكَانَ مِنَ الْهَدَايَا الْمَأْثُورَةِ، مَا بَعَثَ بِهِ كَبِيرُ الْكَهَنَةِ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ إِلَى الْإِمْبِرَاطُورِ «أَدْرِيَانَ»، مِمَّا أَبْدَعَتْهُ «مِصْرُ» مِنَ الزُّجَاجِ الثَّمِينِ.
– أَيُّ هَدِيَّةٍ اخْتَارَهَا الْكَاهِنُ لِلْإِمْبِرَاطُورِ؟
– كُوبَانِ مِنْ زُجَاجٍ مُخْتَلِفٍ أَلْوَانُهُ، وَآخَرَانِ مِنْ أَكْوَابِ الْمَائِدَةِ، فَبَعَثَ بِهَا الْإِمْبِرَاطُورُ إِلَى سَلَفِهِ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَلَّا يَسْتَعْمِلَهَا فِي غَيْرِ الْمُنَاسَبَاتِ الرَّفِيعَةِ النَّادِرَةِ.
– لَا رَيْبَ أَنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْخَسَائِرِ أَنْ تُفْقَدَ هَذِهِ الطُّرَفُ الزُّجَاجِيَّةُ، وَتَضِيعَ فِي غِمَارِ النِّسْيَانِ، فَلَا يَكْتَشِفَهَا أَحَدٌ إِلَى الْيَوْمِ.
– لَمْ تُفْقَدْ كُلُّهَا، فَقَدْ كَشَفَ الْبَاحِثُونَ جَمْهَرَةً مِنْهَا.
– أَتَذْكُرُ شَيْئًا مِمَّا عَثَرُوا عَلَيْهِ؟
– لَا تَنْسَ أَنَّهُمْ وُفِّقُوا إِلَى الْعُثُورِ عَلَى إِنَاءِ «بُرْتِلَنْدَ» الْمَعْرُوفِ فِي «إِنْجِلْتِرَا»، وَهُوَ مِنْ طَرَائِفِ التُّحَفِ الزُّجَاجِيَّةِ، وَيَتَمَيَّزُ بِزُجَاجِهِ الْأَزْرَقِ، وَمِينَائِهِ الْبَيْضَاءِ.
وَلَكِنَّ أَبْدَعَ اكْتِشَافٍ — فِيمَا يَقُولُ الْخُبَرَاءُ الْعَارِفُونَ — هُوَ إِنَاءٌ زُجَاجِيٌّ، عَثَرَ عَلَيْهِ الْمُنَقِّبُونَ فِي قَبْرٍ رُومَانِيٍّ، فِي مَدِينَةِ «اسْتَرَسْبُرْجَ» عَامَ ٨٢٥م.
– أَيُّ إِنَاءٍ هَذَا؟
– هُوَ إِنَاءٌ مِنَ الزُّجَاجِ الْأَبْيَضِ، يُحِيطُ بِهِ إِنَاءٌ آخَرُ مِنَ الزُّجَاجِ الْأَحْمَرِ، وَقَدْ أَبْدَعَ صَانِعُهُمَا فِي صُنْعِ الْإِنَاءِ الْأَحْمَرِ عَلَى هَيْئَةِ شَبَكَةٍ مِنْ شِبَاكِ الصَّيْدِ، نُسِجَتْ خُيُوطُهَا بِمَهَارَةٍ فَائِقَةٍ، تَبْدُو — مِنْ خِلَالِهَا — ثُقُوبٌ مُتْقَنَةُ الصُّنْعِ، يُخَيَّلُ لِمَنْ يَرَاهَا أَنَّهَا حِبَالَةُ صَيْدٍ (شَبَكَةٌ) حَقِيقِيَّةٌ، وَلَا يَدُورُ بِخَاطِرِهِ أَنَّهَا طُرْفَةٌ زُجَاجِيَّةٌ فَنِّيَّةٌ، خُيُوطُهَا مِنْ زُجَاجٍ!
– أَيُّ افْتِنَانٍ، وَأَيُّ إِبْدَاعٍ!

– وَوَجَدُوا عَلَى تِلْكَ الطُّرْفَةِ الزُّجَاجِيَّةِ كِتَابَةً، تَدَلُّ عَلَى أَنَّهَا قَدْ صُنِعَتْ فِي عَهْدِ الْإِمْبِرَاطُورِ «مَكْسِمِلْيَانَ».

– تَعْنِي أَنَّهَا قَدْ صُنِعَتْ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ بَعْدَ الْمِيلَادِ؟

– ذَلِكَ مَفْهُومٌ بِالْبَدَاهَةِ.

– وَهَذَا الزُّجَاجُ — الَّذِي يُمَاثِلُ فِي جَمَالِهِ زُجَاجَ «بُوهِمْيَا» وَ«الْبُنْدُقِيَّةِ» — دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الصِّنَاعَةَ قَدْ بَلَغَتْ عِنْدَ الرُّومَانِيِّينَ مَبْلَغًا عَظِيمًا مِنَ الْإِتْقَانِ وَالتَّجْوِيدِ.

وَلَسْتُ أَسْتَبْعِدُ أَنْ يَكُونُوا قَدِ اهْتَدَوْا إِلَى اخْتِرَاعِ الزُّجَاجِ اللَّيِّنِ، الَّذِي يَنْعَطِفُ وَلَا يُكْسَرُ.

– وَكَيْفَ تَيَسَّرَ لَهُمْ بُلُوغُ هَذِهِ الْغَايَةِ؟

– لَيْسَ ذَلِكَ بِمُسْتَبْعَدٍ عَلَيْهِمْ، وَلَا مُسْتَكْثَرٍ عَلَى فَنِّهِمْ.

وَلَوْ صَحَّتْ قِصَّةُ الْإِمْبِرَاطُورِ «تِيبِيرَ»، لَكَانَتْ دَلِيلًا عَلَى مَا أَقُولُ.

– مَا قِصَّتُهُ؟

– كَانَ فِي عَهْدِ ذَلِكَ الْإِمْبِرَاطُورِ مُهَنْدِسٌ بَارِعٌ، اسْتَهْدَفَ لِغَضَبِ الْإِمْبِرَاطُورِ، فَأَقْصَاهُ — فِيمَا يَقُولُ رُوَاةُ الْأَسَاطِيرِ — فَلَمْ يَلْبَثْ أَنِ اهْتَدَى إِلَى وَسِيلَةٍ أَمْكَنَتْهُ مِنْ أَنْ يُلِينَ الزُّجَاجَ وَيَجْعَلَهُ لَدْنًا كَالرَّصَاصِ.

– مَا أَجْدَرَهُ بِالثَّنَاءِ وَالتَّشْجِيعِ! فَكَيْفَ كُوفِئَ عَلَى صَنِيعِهِ؟

– لَمْ يَنْتَهِ الْمُهَنْدِسُ إِلَى الظَّفَرِ بِهَذِهِ النَّتِيجَةِ، حَتَّى أَيْقَنَ أَنَّهُ سَيُقَرَّبُ إِلَى الْإِمْبِرَاطُورِ بِمَا وُفِّقَ إِلَيْهِ مِنَ اخْتِرَاعٍ عَجِيبٍ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ:

«لَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الْكَشْفَ الْبَاهِرَ سَيُكْسِبُنِي عَطْفَ الْإِمْبِرَاطُورِ الْغَاضِبِ، وَيُعِيدُ إِلَيَّ رِضَاهُ، وَيُغْرِيهِ بِالْعَفْوِ عَنِّي، وَمُكَافَأَتِي بِالْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِي، مُكَرَّمًا مُعَزَّزًا.»

– لَا رَيْبَ أَنَّ تَأْمِيلَهُ صَادِقٌ، فَلَيْسَ أَجْلَبَ لِلْعَطْفِ وَأَدْعَى لِلْمُكَافَأَةِ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ، يَتَقَرَّبُ بِهِ الْبَارِعُ الْمَوْهُوبُ إِلَى الْوُلَاةِ وَالْحُكَّامِ.

– صَدَقْتَ، وَلَكِنَّ أَمَلَهُ فِي تِلْكَ الْمَرَّةِ قَدْ خَابَ.

– لَهُ اللهُ! فَكَيْفَ خَابَ أَمَلُ الْمِسْكِينِ؟

– لَمْ يَكَدِ الْمُهَنْدِسُ يَرْجِعُ إِلَى قَيْصَرِ «رُومَةَ» وَيَمْثُلُ فِي حَضْرَتِهِ، حَتَّى تَجَهَّمَ لَهُ، وَلَمْ يُطِقْ أَنْ يَرَاهُ.

وَتَمَلَّكَهُ الْغَضَبُ، فَابْتَدَرَهُ سَائِلًا:

«كَيْفَ سَوَّلَتْ لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تَجْرُؤَ عَلَى عِصْيَانِ أَمْرِي، وَتَعُودَ إِلَى «رُومَةَ»؟»

فَأَجَابَ الْمُهَنْدِسُ:

«أَغْرَانِي بِذَلِكَ طَمَعِي فِي التَّقَرُّبِ بِمَا وُفِّقْتُ إِلَيْهِ مِنْ كَشْفٍ رَائِعٍ، جَدِيرٍ أَنْ يُكْسِبَنِي عَطْفَ مَوْلَايَ الْقَيْصَرِ.»

فَسَأَلَهُ الْقَيْصَرُ مُتَعَجِّبًا: «أَيُّ شَيْءٍ هَذَا؟»

فَقَدَّمَ لَهُ الْمُهَنْدِسُ قَدَحًا مِنَ الزُّجَاجِ، يُمْكِنُ بِوَاسِطَةِ سِرٍّ اكْتَشَفَهُ أَلَّا يُكْسَرَ، وَيُمْكِنُ فِيمَا بَعْدُ أَنْ يَأْخُذَ أَيَّ شَكْلٍ يُرَادُ.

– فَكَيْفَ قَابَلَ الْقَيْصَرُ بَرَاعَةَ الْمُخْتَرِعِ؟

– أَسْوَأَ مُقَابَلَةٍ؛ فَقَدْ أَمْسَكَ «تِيبِيرُ» بِالْقَدَحِ، وَهُوَ غَاضِبٌ، وَقَذَفَ بِهِ إِلَى الْأَرْضِ لِيُحَطِّمَهُ، وَهُوَ يَصِيحُ: «هَذَا مَا يَلْقَاهُ اخْتِرَاعُكَ لَدَيَّ!»

– وَا خَسَارَتَاهُ! كُسِرَ الْقَدَحُ بِلَا رَيْبٍ!

– كَلَّا، لَمْ يَنْكَسِرِ الْقَدَحُ، وَلَكِنَّهُ انْثَنَى مِنْ شِدَّةِ الصَّدْمَةِ.

– دُونَ أَنْ يُكْسَرَ؟

– كَذَلِكَ كَانَ. وَقَدْ دَهِشَ الْإِمْبِرَاطُورُ لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ.

وَثَمَّ وَضَعَ الْمُهَنْدِسُ الْقَدَحَ عَلَى سِنْدَانٍ صَغِيرٍ كَانَ قَدْ جَاءَ بِهِ مَعَهُ، وَأَقْبَلَ يَدُقُّ عَلَيْهِ بِمِطْرَقَةٍ كَانَتْ لَدَيْهِ، حَتَّى أَعَادَهُ كَمَا كَانَ.

– سَمِعْتُكَ يَا أَبِي، تَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ مِنْ نَسْجِ مُبْدِعِي الْأَسَاطِيرِ، فَمَا هُوَ الْجَانِبُ الْأُسْطُورِيُّ فِيهَا؟

– الْجَانِبُ الْأُسْطُورِيُّ الَّذِي يَتَعَارَضُ مَعَ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ هُوَ أَنَّ مُبْدِعَ الْأُسْطُورَةِ وَرَاوِيَهَا فَاتَهُمَا أَنَّ الزَّجَاجَ — عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ وَتَبَايُنِ تَرْكِيبِهِ — هُوَ — فِي جَوْهَرِهِ — مَادَّةٌ غَيْرُ عُضْوِيَّةٍ، تُسْتَحْدَثُ مِنْ صَهْرِ أُكْسِيدَاتٍ بِعَيْنِهَا، وَأَنَّ هَذِهِ الْأُكْسِيدَاتِ لَا تَكَادُ تَخْرُجُ مِنَ الْفُرْنِ حَتَّى تَبْرُدَ وَتَتَصَلَّبَ، وَتَتَّخِذَ — لِلْحَالِ — شَكْلَهَا النِّهَائِيَّ الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَى إِلَانَتِهِ أَوْ تَبْدِيلِهِ.

– فَمَاذَا صَنَعَ «الْقَيْصَرُ»؟

– زَادَتْ دَهْشَةُ «تِيبِيرَ»، وَقَالَ لَهُ:

«وَهَلْ يَعْرِفُ أَحَدٌ سِوَاكَ سِرَّ هَذَا الْقَدَحِ الْبَدِيعِ؟»

– فَكَيْفَ أَجَابَهُ الْمُهَنْدِسُ؟

– قَالَ لَهُ، وَهُوَ يَتَرَقَّبُ الْفَوْزَ بِجَائِزَةٍ كَبِيرَةٍ:
«كَلَّا، لَا يَعْرِفُ سِرَّهُ أَحَدٌ سِوايَ!»
– فَمَاذَا صَنَعَ «تِيبِيرُ»؟
– صَاحَ بِصَوْتٍ كَالرَّعْدِ: «الْآنَ أُبَشِّرُكَ بِالْمَوْتِ، أَيَّهُا الْمُخْتَرِعُ الْعَظِيمُ! أَنَسِيتَ — أَيُّهَا الْغَبِيُّ أَنَّ الزُّجَاجَ إِذَا صَارَ غَيْرَ قَابِلٍ لِلْكَسْرِ، وَاحْتَفَظَ بِجَمِيعِ مَزَايَاهُ وَخَوَاصِّهِ الْأُخْرَى، فَقَدَ كُلَّ قِيمَتِهِ، وَكَسَدَتْ بِذَلِكَ صِنَاعَةٌ مُزْدَهِرَةٌ؟»
– أَيُّهُمَا الْغَبِيُّ؟!
– «حُجَّةُ الْأَقْوَى قَوِيَّةٌ» كَمَا يَقُولُ الشَّاعِرُ. وَقَدْ أَمَرَ الْإِمْبِرَاطُورُ الْقَوِيُّ بِضَرْبِ عُنُقِ الْمُخْتَرِعِ الْمَوْهُوبِ؛ جَزَاءً لَهُ عَلَى إِبْدَاعِهِ!
– خَبِّرْنِي يَا أَبِي: هَلِ اسْتَطَاعَ الْقُدَمَاءُ الَّذِينَ اخْتَرَعُوا الزُّجَاجَ أَنْ يَهْتَدُوا إِلَى صُنْعِ الْمَرَايَا أَيْضًا؟
– أَأَنْتِ — يَا «لَيْلَى» — مَعْنِيَّةٌ بِاخْتِرَاعِ الْمَرَايَا أَكْثَرَ مِنْ عِنَايَتِكِ بِمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ مِنْ زُجَاجِ الْأَكْوَابِ وَالنَّوَافِذِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ؟!
أَلَا تَعْلَمِينَ — يَا عَزِيزَتِي — أَنَّ الْمَرَايَا قَدْ وُجِدَتْ مُنْذُ أَقْدَمِ الْعُصُورِ؟
– أَتَعْنِي الْمَرَايَا الزُّجَاجِيَّةَ بِذَلِكَ؟
– لَمْ تَكُنِ الْمَرَايَا الْقَدِيمَةُ مِنَ الزُّجَاجِ.
– فَمِمَّ كَانَتْ؟
– مِنَ الْمَعَادِنِ، أَوِ الْحِجَارَةِ الْمَصْقُولَةِ.
وَقَدْ وُجِدَ بَعْضُهَا فِي قُبُورِ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ.
– لِمَ وَضَعَهَا الْمِصْرِيُّونَ الْقُدَمَاءُ فِي قُبُورِهِمْ، وَمَاذَا تُجْدِيهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ؟
– كَانَ مِنْ تَقَالِيدِ دِينِهِمْ وَشَعَائِرِ عِبَادَتِهِمْ — فِي تِلْكَ الْعُصُورِ الْخَوَالِي — أَنْ يَدْفِنُوا مَعَ النِّسَاءِ كُلَّ مَا يُؤْثِرْنَهُ (يَخْتَرْنَهُ) وَيَسْتَعْمِلْنَهُ فِي حَيَاتِهِنَّ مِنَ الطَّرَائِفِ وَالْحُلِيِّ.
وَفِي هَذَا تَعْلِيلٌ لِمَا نَرَاهُ — غَالِبًا — فِي التَّوَابِيتِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ فِي قُبُورِ النِّسَاءِ، مِنْ صَنَادِيقَ مَنْقُوشَةٍ، بِهَا قَلَائِدُ وَأَسَاوِرُ، زُجَاجِيَّةٌ أَوْ مَعْدِنِيَّةٌ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَوَانِي الَّتِي كُنَّ يَضَعْنَ فِيهَا الْعُطُورَ وَمَا إِلَيْهَا.
وَقَدْ تَجَلَّى فِي تِلْكَ الْمَقَابِرِ حِرْصُهُنَّ الشَّدِيدُ عَلَى مَرَايَاهُنَّ.

– كَيْفَ كَانَتِ الْمَرَايَا؟

– كَانَتْ مُسْتَدِيرَةَ الْأَشْكَالِ، وَقَدْ نُقِشَتْ مَقَابِضُهَا بِالْمِينَاءِ، وَكَثِيرًا مَا حُلِّيَتْ بِالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ.

– الْآنَ عَرَفْتُ السَّبَبَ، فَشُكْرًا لَكَ يَا أَبَتَاهُ. وَإِنَّهُ لَجَمِيلٌ أَنْ يُودَعَ مَعَ الْمَوْتَى كُلُّ مَا أَحَبُّوهُ فِي حَيَاتِهِمْ مِنَ الطَّرَائِفِ وَالْمُتَعِ.

– وَبَعْدَئِذٍ صُنِعَتِ الْمَرَايَا مِنَ الزُّجَاجِ، وَقَدْ شُوهِدَ فِي النُّقُوشِ الَّتِي وُجِدَتْ فِي «بُومْبِي» غَادَاتٌ يَسْتَعِنَّ عَلَى زِينَتِهِنَّ بِمَا لَدَيْهِنَّ مِنْ مَرَايَا مُسْتَدِيرَةٍ غَايَةٍ فِي الْجَمَالِ. وَقَدْ كَانَتِ الْحُجُرَاتُ — كَمَا هِيَ فِي أَيَّامِنَا — مُزْدَانَةً بِطَائِفَةٍ مِنَ الْمَرَايَا الْكَبِيرَةِ.

– لَا أَظُنُّ مَنَازِلَ الرُّومَانِيِّينَ كَانَتْ شَدِيدَةَ الشَّبَهِ بِمَنَازِلِنَا.

– يَقُولُ الْمَثَلُ: «لَا جَدِيدَ فِي الْأَرْضِ!»

– كَمَا يَقُولُ مَثَلٌ آخَرُ: «لَا جَدِيدَ تَحْتَ الشَّمْسِ!»

وَقَدِيمًا قَالَ الشَّاعِرُ:

مَا مَرَّ فِي دُنْيَاكَ أَمْرٌ مُعْجِبٌ   إِلَّا أَرَتْكَ لِمَا مَضَى تِمْثَالًا!

– هَذَا صَحِيحٌ، وَطَالَمَا انْطَبَقَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَإِنَّ تَارِيخَ الْمَرَايَا يَرْجِعُ إِلَى عَهْدٍ بَعِيدٍ. أَتَذْكُرُونَ مَا يَرْوِيهِ التَّارِيخُ عَنْ «أَرْشِمِيدِسَ» الْمَعْرُوفِ.

– نَعَمْ. إِنَّهُ ذَلِكَ الرِّيَاضِيُّ الَّذِي اسْتَطَاعَ — بِوَاسِطَةِ مَرَايَاهُ — أَنْ يُحْرِقَ أُسْطُولَ «مَرْسِيلُوسَ» الرُّومَانِيِّ، وَهُوَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ!

– حَسَنٌ يَا وَلَدِي. مَا أَعْظَمَ غِبْطَتِي وَابْتِهَاجِي إِذْ أَجِدُكَ عَارِفًا بِأَهَمِّ أَحْدَاثِ التَّارِيخِ. وَثَمَّ مَا يَحْمِلُ عَلَى الظَّنِّ بِأَنَّ هَذِهِ الْمَرَايَا كَانَتْ ذَاتَ زُجَاجٍ مُقَعَّرٍ، تُحْصَرُ فِيهِ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ، ثُمَّ تُرْسَلُ مِنْهَا بِقُوَّةٍ مُحْرِقَةٍ مَرْهُوبَةٍ.

– وَلَكِنْ، أَلَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ بِأَنَّهَا كَانَتْ مِنْ مَعْدِنٍ مَصْقُولٍ؟

– حَقِيقَةً. وَلَكِنْ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنَّهَا كَانَتْ مِنَ الزُّجَاجِ، لِأَنَّ «أَرْشِمِيدِسَ» كَانَ قَدْ صَنَعَ مِرْآةً مِنَ الزُّجَاجِ كُرِيَّةَ الشَّكْلِ، تَنْعَكِسُ عَلَيْهَا الْكَوَاكِبُ. فَلَيْسَ مِنَ الْمُدْهِشِ إِذَنْ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ الزُّجَاجَ فِي صُنْعِ تِلْكَ الْمَرَايَا الْقَوِيَّةِ!

– وَلَكِنْ، أَيُمْكِنُ — يَا أَبِي — أَنْ يَحْرِقَ الزُّجَاجُ أُسْطُولًا؟!

– لَيْسَ ذَلِكَ بِمُسْتَحِيلٍ، عَلَى كُلِّ حَالٍ!

– كَيْفَ؟

– لَقَدْ أَرَادَ الْعَالِمُ الطَّبِيعِيُّ «بُوفُونُ» فِي الْقَرْنِ الثَّالِثَ عَشَرَ أَنْ يُجْرِيَ مِثْلَ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ، فَمَاذَا صَنَعَ؟

اهْتَدَى بِرَأْيِ «أَرْشِمِيدِسَ»، فَأَنْشَأَ «عَاكِسَ الضَّوْءِ»، مِنْ زُجَاجٍ مُقَعَّرٍ مُكَوَّنٍ مِنْ مَائَةٍ وَسِتِّينَ مِرْآةً صَغِيرَةً مُتَحَرِّكَةً.

– فَهَلْ كُتِبَ لَهُ النَّجَاحُ؟!

– تَمَكَّنَ بِهَذِهِ الْآلَةِ، مِنْ أَنْ يُحْرِقَ كُومَةً مِنَ الْخَشَبِ، تَبْعُدُ عَنْهُ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ وَمِائَةِ مِتْرٍ.

– يَا لِلْعَجَبِ!

– كَمَا تَمَكَّنَ مِنْ إِذَابَةِ الْقَصْدِيرِ عَلَى بُعْدِ خَمْسِينَ مِتْرًا.

– وَهَذَا أَعْجَبُ!

– وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ لَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ فِي حَاجَةٍ إِلَى الثِّقَابِ.

– أَلَا تَدْرِي يَا «ثَرْوَةُ»، أَنَّنِي كُنْتُ أُشْعِلُ وَرَقَةً بِزُجَاجَةِ سَاعَةٍ، إِذَا أَرَدْتُ!

– حَقِيقَةً، إِنَّ مِنَ الزُّجَاجِ لَعَجَائِبَ وَغَرَائِبَ!

– صَدَقْتِ يَا «لَيْلَى»، وَبَعْدَ سُقُوطِ «الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ» اتَّسَعَتْ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ، وَارْتَقَى فَنُّ الزُّجَاجِ، وَبِخَاصَّةٍ فِي «الْبُنْدُقِيَّةِ» وَ«بُوهِمْيَا» وَ«فَرَنْسَا» وَ«إِنْجِلْتِرَا».

وَكَانَ فِي «فَرَنْسَا» فِي الْقَرْنِ الرَّابِعَ عَشَرَ مُزْدَهِرًا لِلْغَايَةِ؛ إِذْ صُنِعَ مِنَ الزُّجَاجِ التُّحَفُ والطُّسُوتُ وَالْأَوَانِي وَالْأَقْدَاحُ الْمَنْقُوشَةُ، وَبِخَاصَّةٍ الْأَلْوَاحُ الزُّجَاجِيَّةُ الْبَدِيعَةُ فِي الْكَنَائِسِ.

وَلَكِنَّ الْفَضْلَ فِي هَذَا التَّقَدُّمِ يَرْجِعُ — فِي الْأَكْثَرِ — إِلَى «كُلْبِيرَ» الَّذِي اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْتَذِبَ كَثِيرًا مِنْ عُمَّالِ «الْبُنْدُقِيَّةِ»، وَأَنْشَأَ مَصْنَعًا لِلْمَرَايَا.

وَفِي سَبِيلِ تَرْقِيَةِ هَذَا الْفَنِّ، تَقَرَّرَ — مُنْذُ الْقُرُونِ الْوُسْطَى — أَنْ يُرْفَعَ كُلُّ مَنْ يَعْمَلُ فِي صِنَاعَةِ الزُّجَاجِ إِلَى مَرْتَبَةِ السَّادَةِ الْأَشْرَافِ.

– وَمَنَحَ «شَارْلُ السَّابِعُ» — وَمَنْ خَلَفُوهُ — أَلْقَابَ النُّبْلِ لِصَانِعِي الزُّجَاجِ.

وَاسْتَطَاعَ السَّرَاةُ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُسَرِ الْكَرِيمَةِ أَنْ يَكُونُوا صُنَّاعَ زُجَاجٍ، دُونَ الْحَطِّ مِنْ نُبْلِهِمْ، وَأُعْفُوا مِنَ الْجِزْيَةِ وَالضَّرَائِبِ الَّتِي يَدْفَعُهَا الشَّعْبُ.

– عَلَى أَنَّ هَذَا النُّبْلَ الصِّنَاعِيَّ لَمْ يَكُنْ لَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْهَيْبَةِ وَالْوَقَارِ.

وَقَدْ أُلْغِيَ هَذَا النُّبْلُ بَعْدَئِذٍ، وَلَمْ يَحُلْ إِلْغَاؤُهُ دُونَ رُقِيِّ صِنَاعَةِ الزُّجَاجِ بـ «فَرَنْسَا» وَسَائِرِ «أُورُوبَّةَ» حَتَّى أَيَامِنَا هَذِهِ.

– وَلَقَدِ انْقَضَى الْوَقْتُ الَّذِي كَانَتْ أَلْوَاحُ الزُّجَاجِ فِيهِ نَادِرَةً جِدًّا وَغَالِيَةً جِدًّا فِي «إِنْجِلْتِرَا»، إِلَى حَدٍّ جَعَلَ أَصْحَابَ الْقُصُورِ يَحْرِصُونَ عَلَى خَلْعِ نَوَافِذِهَا، إِذَا غَادَرُوهَا إِلَى بَعْضِ أَسْفَارِهِمْ.

– لِمَاذَا؟

– خَوْفًا مِنْ أَنْ تُحَطِّمَ الرِّيحُ الزُّجَاجَ!

– كَانَ الزُّجَاجُ — لِنُدْرَتِهِ — مِنْ أَثْمَنِ الطُّرَفِ حِينَئِذٍ، فَلَا عَجَبَ إِذَا خَشُوا عَلَيْهِ الْكَسْرَ، فَحَرَصُوا عَلَيْهِ، وَبَذَلُوا كُلَّ جُهْدِهِمْ فِي صَوْنِهِ وَرِعَايَتِهِ.

الْفَصْلُ السَّادِسُ

«يَاقُوتٌ» السَّاحِرُ

– كُنْتَ عَلَى وَشْكِ أَنْ تُحَدِّثَنَا — أَوَّلَ أَمْسِ — عَنْ «يَاقُوتٍ» السَّاحِرِ، صَاحِبِ مَدِينَةِ الْيَاقُوتِ.

ثُمَّ تَطَرَّقَ بِنَا الْحَدِيثُ إِلَى مَوْضُوعٍ آخَرَ.

– لَمْ تَضِعْ فُرْصَةُ الْحَدِيثِ، عَلَى أَيِّ حَالٍ.

– فَهَلْ تَذْكُرُ هَذِهِ الْقِصَّةَ؟

– أَذْكُرُهَا كَأَنَّمَا انْتَهَيْتُ مِنْ قِرَاءَتِهَا الْيَوْمَ.

وَسَتَرَوْنَ أَنَّهَا أَعْجَبُ مِنْ كُلِّ مَا سَمِعْتُمُوهُ مِنْ غَرَائِبِ الْأَسَاطِيرِ.

– مَا أَعْجَبَ ذَاكِرَتَكَ يَا «ثَرْوَةُ»! فَهَاتِ حَدِيثَكَ.

– صِلْ مَا انْقَطَعَ مِنَ الْحَدِيثِ، وَقُصَّ عَلَى إِخْوَتِكَ مَا وَعَدْتَهُمْ بِهِ.

– لَيْسَ أَبْهَجَ لِنَفْسِي مِنْ تَلْبِيَةِ مَا تَطْلُبُونَ:

كَانَ السَّاحِرُ قَزَمًا مُفْرِطًا فِي الْقِصَرِ، وَكَانَتْ لِحْيَتُهُ طَوِيلَةً، مُفْرِطَةً فِي الطُّولِ.

– جَمَعَ بَيْنَ الْقَمَاءَةِ (الْمَذَلَّةِ وَصِغَرِ الْجِسْمِ)، وَضَخَامَةِ اللِّحْيَةِ!

– كَأَنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَتَلَافَى مَا نَقَصَ مِنْ جِسْمِهِ بِمَا زَادَ مِنْ لِحْيَتِهِ!

– كَانَ طُولُهُ ثَلَاثَةَ أَشْبَارٍ، وَطُولُ لِحْيَتِهِ سِتَّةً!

– مَا أَعْجَبَهُ مَنْظَرًا، وَأَغْرَبَهَا صُورَةً!

لِحْيَةٌ أَطْوَلُ مِنْ رَجُلٍ، وَرَجُلٌ أَقْصَرُ مِنْ لِحْيَةٍ!
– وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّقِيضَانِ فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ.
– قَامَتُهُ نِصْفُ لِحْيَتِهِ.
– وَلِحْيَتُهُ ضِعْفُ قَامَتِهِ!
– فَكَيْفَ يَمْشِي؟ لَا رَيْبَ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَثَّرُ فِيهَا!
– لَوْ مَشَى عَلَى سَاقَيْهِ، لَتَعَثَّرَ فِيهَا بِلَا شَكٍّ.
– فَكَيْفَ يَصْنَعُ؟
– كَانَ يَمْشِي عَلَى سَاقَيْنِ مِنَ السَّاجِ، طُولُ كُلٍّ مِنْهُمَا سِتَّةُ أَشْبَارٍ.
– تَقُولُ: «عَلَى سَاقَيْنِ مِنَ السَّاجِ!» فَمَا هُوَ السَّاجُ؟
– هُوَ شَجَرٌ مُتَنَاهٍ فِي الْكِبَرِ، يَنْبُتُ فِي الْمَنَاطِقِ الِاسْتِوَائِيَّةِ، وَيَكْثُرُ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ، وَخَشَبُهُ غَايَةٌ فِي الْمَتَانَةِ.
– سَمِعْتُ مِنْ بَعْضِ أَسَاتِذَتِي أَنَّ خَشَبَ السَّاجِ أَسْوَدُ رَزِينٌ، لَا تَكَادُ الْأَرْضُ تُبْلِيهِ.
– هُوَ كَذَلِكَ، صَدَقْتَ يَا «مَحْمُودُ»، وَصَدَقَ أُسْتَاذُكَ.
– الْآنَ عَرَفْنَا كَيْفَ يَرْتَفِعُ بِلِحْيَتِهِ عَنِ الْأَرْضِ إِذَا مَشَى!
فَمَاذَا يَصْنَعُ إِذَا قَعَدَ؟
– كَانَ يَفْرِشُ لِحْيَتَهُ عَلَى وِسَادَةٍ مِنَ الدِّيبَاجِ أَوِ الْحَرِيرِ.
– مَا كَانَ أَغْنَاهُ عَنْ هَذَا الْعَنَاءِ!
– الْجُنُونُ فُنُونٌ!
– كَانَ «يَاقُوتٌ»، كَمَا قُلْتُ لَكُمْ، لِحْيَانِيًّا (طَوِيلَ اللِّحْيَةِ، عَرِيضَهَا)، فَكَانَتْ تُكْسِبُهُ مَهَابَةً وَرَوْعَةً.
فَلَا عَجَبَ إِذَا رَأَى فِي كِبَرِ لِحْيَتِهِ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ عَظَمَتِهِ.
– لَعَلَّ بَيَاضَ شَعْرِهَا فِي زَمَنِ شَيْخُوخَتِهِ قَدْ حَبَّبَ إِلَيْهِ أَنْ يُرْسِلَهَا.
– لَعَلَّكُمْ تَعْجَبُونَ إِذَا قُلْتُ لَكُمْ: إِنَّ لِحْيَتَهُ لَمْ تَكُنْ بَيْضَاءَ!
– أَسَوْدَاءَ كَانَتْ؟
– لَمْ تَكُنْ سَوْدَاءَ وَلَا حَمْرَاءَ، بَلْ زَرْقَاءَ.
– يَا لَلْعَجَبِ! يَأْبَى ذَلِكَ الْقَزَمُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ شَاذًّا فِي كُلِّ شَيْءٍ:
قَامَةٌ مُفْرِطَةٌ فِي الْقِصَرِ وَالنَّحَافَةِ، وَلِحْيَةٌ مُفْرِطَةٌ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ، وَشَعْرٌ أَزْرَقُ!

وَهَكَذَا يَجْتَمِعُ فِيهِ كُلُّ مَا يَنْبُو عَنْهُ النَّظَرُ وَلَا تَأْلَفُهُ الْعَيْنُ.

– وَكَانَ — إِلَى قِصَرِ قَامَتِهِ، وَضَخَامَةِ لِحْيَتِهِ — أَصْلَعَ، يَنْحَسِرُ شَعْرُهُ فَتَمْتَدُّ جَبْهَتُهُ حَتَّى تَبْلُغَ نِصْفَ رَأْسِهِ.

– لَكَأَنَّمَا عَنَاهُ الْقَائِلُ:

يَأْخُذُ أَعْلَى الْوَجْهِ مِنْ رَأْسِهِ   أَخْذَ نَهَارِ الصَّيْفِ مِنْ لَيْلِهِ!

– لَقَدْ أَبْدَعْتَ فِي تَمَثُّلِكَ يَا «مَحْمُودُ».

– فَلَمْ يَبْقَ لَهُ مَا يُعْنَى بِهِ — أَيُّهَا الْأَعِزَّاءُ — غَيْرُ تَنْظِيمِ تِلْكَ اللِّحْيَةِ الزَّرْقَاءِ، وَتَنْسِيقِهَا عَلَى نِظَامٍ مُبْتَكَرٍ.

– أَيَّ نِظَامٍ ابْتَكَرَ؟

– كَانَ يَسْلُكُ فِي شَعَرَاتِهَا نَفَائِسَ مِنْ حَبَّاتِ اللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ، مِنْ مُخْتَلِفِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَلْوَانِ.

– شَدَّ مَا تَحَالَفَ عَلَيْهِ الشُّذُوذُ، فَأَصْبَحَ نَسِيجَ وَحْدِهِ فِي مُفَارَقَاتِهِ وَتَنَاقُضِهِ.

– وَلَمْ يَقِفْ شُذُوذُهُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ.

– فَمَاذَا بَلَغَ مِنْ أَمْرِهِ؟

– كَانَ شُذُوذُهُ فِي مَخْبَرِهِ، أَضْعَافَ شُذُوذِهِ فِي مَظْهَرِهِ!

– أَيُّ مَخْلُوقٍ هَذَا؟!

– لَوْلَا ذَلِكَ لَمَا ادَّعَى الْأُلُوهِيَّةَ.

– صَدَقْتَ؛ فَقَدْ بَلَغَ بِهَذَا الادِّعَاءِ غَايَةَ دَرَجَاتِ الْخَبَالِ.

– كَذَلِكَ تُمَثِّلُهُ الْأُسْطُورَةُ.

– وَمَا الَّذِي أَغْرَاهُ بِهَذَا الْجُنُونِ؟

– كَانَ، كَمَا حَدَّثْتُكُمْ، مِنْ أَبْرَعِ السَّحَرَةِ فِي زَمَنِهِ، وَرَأَى مَا أُوتِيَهُ مِنْ سُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ، وَمَا تَفَرَّدَ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ، فَاسَتَعْبَدَ النَّاسَ.

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَمَلَّكَهُ الزَّهْوُ وَالْخُيَلَاءُ، وَزَيَّنَ لَهُ شَيْطَانُ الْغُرُورِ أَنْ يَقُولَ لِأَتْبَاعِهِ: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى.»

– الْآنَ تَمَّ لَهُ الْخَبَالُ، وَبَلَغَ غَايَاتِ الضَّلَالِ، وَخُتِمَ لَهُ بِالْوَبَالِ.

– فَهْلَ تَبِعَهُ فِي ضَلَالِهِ أَحَدٌ؟

– مَا أَكْثَرَ الْمَجَانِينَ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَمَصْرٍ؛ فَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْمَخْدُوعِينَ يُقْسِمُونَ بِهِ وَيَسْجُدُونَ لَهُ!

– بَهَرَهُمْ بِسَمَائِهِ الزُّجَاجِيَّةِ الَّتِي أَقَامَهَا عَلَى مَدِينَتِهِ.

– وَكَانَ — إِلَى ذَلِكَ — يُوهِمُهُمْ أَنَّهُ عَالِمٌ بِالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَيَنْخَدِعُونَ بِهِ وَيُصَدِّقُونَهُ.

– مَاذَا يَعْنِي بِالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ؟

– أَمَّا الْغَيْبُ فَهُوَ — كَمَا تَعْلَمُونَ — عَالَمُ الْأَشْيَاءِ الْمَسْتُورَةِ الَّتِي لَا تُرَى.

– فَمَا الشَّهَادَةُ؟

– هِيَ عَالَمُ الْأَشْيَاءِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي نَرَاهَا.

– فَهُوَ يَعْنِي بِذَلِكَ مَا غَابَ مِنَ الْأُمُورِ وَمَا ظَهَرَ.

– صَدَقْتَ يَا وَلَدِي، وَلَمْ تُخْطِئْ مُرَادَهُ.

– فَمَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرِ «يَاقُوتٍ»؟

– طَبَّقَ صِيتُهُ الْآفَاقَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ «سَيْفَ الْيَمَنِ»، بَعَثَ إِلَيْهِ بِأَحَدِ رُوَّادِهِ لِيَتَعَرَّفَ حَقِيقَةَ أَمْرِهِ.

– بِأَيِّ رُوَّادِهِ بَعَثَ؟

– بِـ «مُسَابِقِ الْعَيَّارِ»، وكَانَ آيَةً فِي النَّشَاطِ وَالشَّجَاعَةِ وَالذَّكَاءِ.

– فَمَا مَعْنَى «الْعَيَّارِ»؟

– مَعْنَاهُ: الْأَسَدُ.

– أَتَعْنِي أَنَّهُ كَانَ يُسَابِقُ الْأَسَدَ؟

– كَذَلِكَ شَاءَ رَاوِي الْقِصَّةِ أَنْ يُلَقِّبَهُ.

– أَلَمْ يَكُنْ أَلْيَقَ بِنَشَاطِهِ أَنْ يُلَقِّبَهُ بِـ«مُسَابِقِ الْغَزَالِ»؟

– أَوَلَيْسَ أَجْدَرَ بِشَجَاعَتِهِ أَنْ يُلَقَّبَ بِـ «مُسَابِقِ الْأَسَدِ»؟

– مَا بَالُكُمَا تَذْهَبَانِ بَعِيدًا، أَلَا تَعْلَمَانِ أَنَّ النَّاسَ قَدْ أَلِفُوا — مُنْذُ قَدِيمٍ — أَنْ يُطْلِقُوا لَقَبَ «الْعَيَّارِ» عَلَى الذَّكِيِّ النَّشِيطِ مِنَ الرِّجَالِ؟

– الْآنَ فَهِمْنَا مَا تَعْنِيهِ يَا أَبِي؛ إِنَّ اسْمَهُ: «مُسَابِقٌ»، وَ«الْعَيَّارَ»: لَقَبُهُ. فَهُوَ «مُسَابِقٌ الْعَيَّارُ».

– ذَلِكَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ، وَأَدْنى إِلَى الْفَهْمِ.

– مَا أَجْدَرَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ!

– فَمَاذَا صَنَعَ «مُسَابِقٌ»؟

– أَسْرَعَ بِالذَّهَابِ إِلَى السَّاحِرِ، فَلَقِيَ فِي طَرِيقِهِ خَادِمَ «يَاقُوتٍ»، فَاحْتَالَ عَلَيْهِ حَتَّى عَرَفَ أَسْرَارَهُ وَأَسْرَارَ سَيِّدِهِ.

ثُمَ قتَلَ الْخَادِمَ، وَتَمَثَّلَ فِي هَيْئَتِهِ، وَتَزَيَّا بِزِيِّهِ.

وَكَانَ بَارِعًا فِي التَّنَكُّرِ، فَأَصْبَحَ صُورَةً مُكَرَّرَةً مِنْهُ، ثُمَّ عَادَ إِلَى «يَاقُوتٍ»، وَمَعَهُ مَا طَلَبَهُ مِنْ خَادِمِه.

– فَكَيْفَ لَقِيَهُ «يَاقُوتٌ»؟

– هَشَّ لِلِقَائِهِ وَبَشَّ.

– لَقَدْ عَرَفَ كَيْفَ يَخْدَعُ السَّاحِرَ الذَّكِيَّ.

– لَمْ يَكَدْ «يَاقُوتٌ» يَرَاهُ، حَتَّى دَارَ بَيْنَهُمَا الْحِوارُ الْآتِي:

– هَلْ أَحْضَرْتَ الطَّعَامَ؟

– نَعَمْ.

– وَالثِّيَابَ؟

– نَعَمْ.

– وَهَلْ قَتَلْتَ خَادِمِي، وَلَبِسْتَ ثِيَابَهُ؟

– لَقَدْ فَطِنَ الْخَبِيثُ إِلَى حِيلَةِ «مُسَابِقِ الْعَيَّارِ»!

– يَا لَهُ مَأْزِقًا حَرِجًا! فَبِمَاذَا أَجَابَهُ «مُسَابِقٌ»؟

– بُهِتَ، وَلَمْ يُحِرْ جَوَابًا.

– لَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ أَمْرَهُ قَدِ انْكَشَفَ، وَأَيْقَنَ أَنَّ الْهَلَاكَ مَصِيرُهُ.

– لَمْ يَبْقَ أَمَامَهُ غَيْرُ الْهَرَبِ.

– إِنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا!

– أَلَمْ تَقُلْ لَنَا: «إِنَّهُ كَانَ آيَةً فِي النَّشَاطِ» فَمَاذَا يُعْجِزُهُ عَنِ الْهَرَبِ؟

– قَيَّدَهُ «يَاقُوتٌ» بِسِحْرِهِ، وَخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّ قَدَمَيْهِ سُمِّرَتَا فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ أَعْضَاءَهُ مُتَخَاذِلَةٌ مُتَفَكِّكَةٌ.

– وَقَعَ الْمِسْكِينُ فِي أَسْرِ السَّاحِرِ اللَّعِينِ!

– وَهُنَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ «يَاقُوتٌ»، وَرَوَى لِسُمَّارِهِ مَا صَنَعَ «مُسَابِقٌ»، وَكَيْفَ احْتَالَ عَلَى خَادِمِهِ وَأَهْلَكَهُ — بَعْدَ أَنْ عَرَفَ مَا خَفِيَ مِنْ سِرِّهِ — وَكَيْفَ وَسْوَسَ لَهُ الْغُرُورُ أَنْ يَقْتُلَ السَّيِّدَ بَعْدَ أَنْ قَتَلَ الْعَبْدَ.

ثُمَّ أَطْرَقَ «يَاقُوتٌ» هُنَيْهَةً، وَاسْتَأْنَفَ قَائِلًا:

«لَوْ قَتَلْتُكَ يَا «مُسَابِقُ» لَأَرَحْتُكَ، وَلَكِنِّي لا أُحِبُّ لَكَ الرَّاحَةَ، وَلَا أَرْضَاهَا لِأَمْثَالِكَ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ.

وَقَدِ اجْتَمَعَ رَأْيِي عَلَى أَنْ أَسْتَبْقِيَكَ حَيًّا، لِأُطِيلَ تَعْذِيبَكَ، وَأَفْتَنَّ فِي تَنْغِيصِكَ، وَسَأَتَّخِذُكَ لِي عَبْدًا تَخْدُمُنِي بَدَلًا مِمَّنْ قَتَلْتَهُ.

وَحَذَارِ أَنْ تُفَكِّرَ فِي الْغَدْرِ بِي، فَإِنِّي — إِنْ خَطَرَ لَكَ ذَلِكَ — سَأُعَذِّبُكَ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا.»

– لَا رَيْبَ أَنْ «مُسَابِقًا» فَرِحَ بِنَجَاتِهِ.

– وَلَكِنَّ «مُسَابِقًا» أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَتَحَيَّنَ الْفُرَصَ لِاغْتِيَالِهِ!

– فَمَاذَا صَنَعَ «مُسَابِقٌ»؟

– تَظَاهَرَ بِشُكْرِ «يَاقُوتٍ»، وَاعْتَزَمَ فِي نَفْسِهِ تَنْفِيذَ مَا جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ.

– فَهَلْ أُتِيحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ؟

– رَأَى دُونَ تَحْقِيقِهَا أَهْوَالًا جِسَامًا.

– مَاذَا رَأَى؟

– كَانَ أَوَّلُ مَا بَهَرَ «مُسَابِقًا» مِنْ سِحْرِ «يَاقُوتٍ» أَنَّهُ كَانَ كُلَّمَا احْتَاجَ شَيْئًا نَادَاهُ فَلَبَّاهُ!

– هَذَا كَلَامٌ مُلْتَبِسٌ لَا يَبِينُ، فَزِدْنَا إِيضَاحًا يَا أَخِي.

– كَانَ «يَاقُوتٌ» يُنَادِي الْمَائِدَةَ — إِذَا جَاعَ — فَتَحْضُرُ، ثُمَّ يُنَادِي أَلْوَانَ الطَّعَامِ الَّتِي يُرِيدُهَا، فَإِذَا بِالصِّحَافِ وَالْأَطْبَاقِ مَاثِلَةٌ أَمَامَهُ فَوْقَ الْمَائِدَةِ، ثُمَّ يُنَادِي مَا تَحْوِيهِ الصِّحَافُ وَالْأَطْبَاقُ مِنْ لَذَائِذِ الْأَطْعِمَةِ، فَيَنْتَقِلُ إِلَى فَمِهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْهَا — دُونَ أَنْ يُحَرِّكَ لِتَنَاوُلِهِ يَدًا — وَلَا تَزَالُ اللُّقَمُ مُتَتَابِعَةً إِلَى فَمِهِ — وَاحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرَى — حَتَّى يَشْبَعَ.

فَإِذَا طَلَبَ الشَّرَابَ انْتَقَلَتْ إِلَيْهِ الْأَقْدَاحُ وَارْتَفَعَتْ إِلَى فَمِهِ، قَدَحًا بَعْدَ قَدَحٍ. فَإِذَا شَبِعَ «يَاقُوتٌ» وَارْتَوَى أَمَرَ الْمَائِدَةَ أَنْ تُرْفَعَ بِمَا عَلَيْهَا.

فَتَعُودُ الْمَائِدَةُ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ، وَتَسْتَخْفِي بِمِثْلِ السُّرْعَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا، وَتَغِيبُ عَنِ النَّظَرِ، وَشْكَ اللَّمْحِ بِالْبَصَرِ.

– يَا لَهُ مِنْ سَاحِرٍ عَجِيبٍ!

– وَلَمْ يَتَمَالَكْ «مُسَابِقٌ» أَنْ يَبْتَهِجَ حِينَ رَآهُ يَسْتَسْلِمُ لِلنَّومِ، بَعْدَ أَنْ أَتْخَمَهُ مَا أَفْرَطَ فِيهِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ. وَلَاحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ سَانِحَةً لِلِانْتِقَامِ، حِينَ رَآهُ يَرْتَمِي عَلَى الْأَرْضِ جُثَّةً هَامِدَةً، لَا نَأْمَةَ فِيهَا وَلَا حَرَكَةَ.

– يَا لَهَا فُرْصَةً نَادِرَةً!

– كَذَلِكَ خَيَّلَ إِلَيْهِ الْوَهْمُ، وَكَانَ اللَّيْلُ قَدْ مَضَى أَكْثَرُهُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا أَقَلُّهُ، فَلَمْ يَشَأْ «مُسَابِقٌ» أَنْ يُفْلِتَ مِنْهُ «يَاقُوتٌ».

فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَفِي يَدِهِ خِنْجَرٌ مُرْهَفٌ، فَنَحَرَهُ مِنَ الْوَرِيدِ إِلَى الْوَرِيدِ.

ثَمَ مَسَحَ مَا عَلِقَ بِخِنْجَرِهِ مِنْ دَمِ السَّاحِرِ، وَأَعَادَهُ إِلى قِرَابِهِ.

فَلَمَّا تَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ، قَذَفَ بِرَأْسِ السَّاحِرِ إِلَى إِحْدَى زَوَايَا الْحُجْرَةِ، ثُمَّ تَأَهَّبَ لِلْهَرَبِ قَبْلَ أَنْ يَكْشِفَهُ ضَوْءُ النَّهَارِ.

فَلَمْ يَجِدْ لِلْبَابِ أَثَرًا، وَرَأَى الْجِدَارَ يُحِيطُ بِالْحُجْرَةِ، وَيَسُدُّ مَنَافِذَهَا كُلَّهَا، فَارْتَبَكَ، وَأَيْقَنَ أَنَّ الْحُجْرَةَ قَدْ أَصْبَحَتْ قَبْرًا لَهُ وَلِلسَّاحِرِ جَمِيعًا!

وَتَمَلَّكَتْهُ الْحَيْرَةُ، فَلَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَصْنَعُ؟!

وَلَا تَسَلْ عَمَّا اسْتَوَلَى عَلَيْهِ مِنَ الرُّعْبِ وَالْفَزَعِ، حِينَ رَأَى رَأْسَ «يَاقُوتٍ» يَتَدَحْرَجُ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَقْتَرِبَ مِنَ الْجُثَّةِ الَّتِي زَايَلَهَا مُنْذُ قَلِيلٍ.

ثُمَّ رَأَى شَفَتَيْهِ تَنْفَرِجَانِ، وَلِسَانَهُ يَتَحَرَّكُ، وَسَمِعَهُ يُتَمْتِمُ بِأَلْفَاظٍ غَرِيبَةٍ مِنَ السِّحْرِ، فَلَا يَنْتَهِي مِنْهَا حَتَّى يَعْتَدِلَ الْجِسْمُ عَلَى قَدَمَيْهِ، وَيَنْبَثِقَ مِنْهُ دَمٌ غَزِيرٌ، ثُمَّ يَنْدَفِعُ كَأَنَّمَا يَخْرُجُ مِنْ نَافُورَةٍ، مُتَنَاثِرًا فِي أَرْضِ الْحُجْرَةِ.

وَلَا يَزَالُ الدَّمُ يَتَدَفَّقُ حَتَّى تَمْتَلِئَ بِهِ الْحُجْرَةُ.

وَيَظَلُّ «مُسَابِقٌ» يَعُومُ لِيُخَلِّصَ حَيَاتَهُ مِنَ الْغَرَقِ، حَتَّى إِذَا قَارَبَ الدَّمُ سَقْفَ الْحُجْرَةِ يَئِسَ «مُسَابِقٌ» مِنَ الْحَيَاةِ. وَيَمُدُّ «مُسَابِقٌ» يَدَهُ إِلَى السَّقْفِ، فَلَا تَلْمُسُهُ كَفُّهُ حَتَّى تَلْتَصِقَ بِهِ، وَيُحَاوِلُ أَنْ يَجْذِبَهَا، فَلَا يَسْتَطِيعُ، وَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا قَدْ سُمِّرَتْ فِيهِ تَسْمِيرًا.

فَإِذَا فَقَدَ كُلَّ أَمَلٍ فِي الْحَيَاةِ، وَيَئِسَ مِنَ النَّجَاةِ، رَأَى الدَّمَ يَغِيضُ مُتَسَرِّبًا مِنْ أَرْضِ الْحُجْرَةِ كَأَنَّمَا فُتِحَتْ لَهُ بَالُوعَةٌ، فَيُعَاوِدُهُ الْأَمَلُ فِي النَّجَاةِ، وَيَنْتَزِعُ كَفَّهُ مِنَ السَّقْفِ بِكُلِّ مَا وَهَبَهُ اللهُ مِنْ قُوَّةٍ، فَيَهْوِي بِجِسْمِهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَيُغْمَى عَلَيْهِ مِنْ هَوْلِ الصَّدْمَةِ، وَلَا يَكَادُ يُفِيقُ مِنْ إِغْمَاءَتِهِ حَتَّى يَرَى السَّاحِرَ جَالِسًا فِي مَكَانِهِ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ سَاخِرًا! فَيَشْتَدُّ ارْتِبَاكُ «مُسَابِقٍ»، وَتَتَعَاظَمُهُ الْحَيْرَةُ، وَلَا يَدْرِي: أَكَانَ حُلْمًا مَا رَآهُ أَمْ حَقِيقَةً؟

وَهَلْ أَدْرَكَ «السَّاحِرُ» مَا يَجُولُ بِخَاطِرِهِ مِنْ رَغْبَةٍ فِي الِانْتِقَامِ، فَسَلَّطَ عَلَيْهِ النَّوْمَ، لِيَكْشِفَ لَهُ — فِي عَالَمِ الْأَحْلَامِ — مَا يُبْطِنُهُ مِنْ أَسْرَارٍ؟ أَمْ كَانَ يَعْبَثُ بِهِ، فَخُيِّلَ لَهُ — فِي عَالَمِ الْيَقَظَةِ — كُلَّ مَا عَانَاهُ مِنْ وَسَاوِسَ وَأَوْهَامٍ؟

وَيَلْتَفِتُ «مُسَابِقٌ» فَيَرَى السَّاحِرَ أَمَامَهُ، يَكَادُ رَنِينُ ضِحْكَاتِهِ يُصِمُّ أُذُنَيْهِ، ثُمَّ يَسْمَعُهُ يَقُولُ لَهُ فِي شَمَاتَةِ الْمُنْتَصِرِ الْمُتَهَكِّمِ:

«مَا الَّذِي أَغْرَاكَ بِالتَّفْكِيرِ فِي قَتْلِي، أَيُّهَا الْخَائِنُ؟

أَكَذَلِكَ تَنْقُضُ عَهْدَكَ، وَلَمْ يَمْضِ عَلَيْهِ إِلَّا سَاعَاتٌ قَلَائِلُ؟»

فَلَا يَجِدُ «مُسَابِقٌ» بُدًّا مِنَ الْمُدَاوَرَةِ وَالْمُصَانَعَةِ، فَيَقُولُ لَهُ مُسْتَعْطِفًا:

«عُذْرًا يَا مَوْلَايَ فَقَدْ كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ بَرَاعَتِكَ، وَلَمْ يُخَامِرْنِي الشَّكُّ فِي عَظَمَتِكَ، وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِكَ — فِي عَالَمِ الْيَقَظَةِ وَالْأَحْلَامِ — مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْعِيَانِ.»

فَضَحِكَ السَّاحِرُ، وَقَالَ لَهُ مَزْهُوًّا:

«الْآنَ ثَبَتَ لَدَيْكَ أَنَّنِي قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ!»

ثُمَّ أَتْبَعَ سُخْرِيَتَهُ قَوْلَهُ: «لَقَدْ صَفَحْتُ عَنْ زَلَّتِكَ، وَتَجَاوَزْتُ عَنْ إِسَاءَتِكَ، فَطَهِّرْ قَلْبَكَ مِنَ الْحِقْدِ عَلَيَّ — إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا — وَإِنْ كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ خُبْثِ نِيَّتِكَ، وَلُؤْمِ طَوِيَّتِكَ.

وَهَيْهَاتَ أَنْ يَجُوزَ عَلَيَّ خِدَاعُكَ، أَوْ يَرُوجَ لَدَيَّ كِذَابُكَ. وَلَكِنَّنِي عَلَى ثِقَةٍ بِنَفْسِي، وَلَنْ يَضِيرَنِي أَنْ أَقْبَلَ عُذْرَكَ الْوَاهِيَ. فَاصْنَعْ بِنَفْسِكَ مَا أَنْتَ صَانِعٌ:

أَمَامَكَ فَانْظُرْ أَيَّ نَهْجَيْكَ تَنْهَجُ ... طَرِيقَانِ شَتَّى مُسْتَقِيمٌ، وَأَعْوَجُ!»

فَشَكَرَ لَهُ «مُسَابِقٌ»، وَمَضَى بَعْدَ ذَلِكَ سَبْعَةُ أَيَّامٍ دُونَ أَنْ يُلِمَّ حَادِثٌ، فَضَاقَ صَدْرُ «مُسَابِقٍ» بِمَا يُكَابِدُهُ مِنْ سِجْنٍ وَأَسْرٍ.

فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّامِنَةُ، انْتَهَزَ غَفْلَةً مِنْ «يَاقُوتٍ» السَّاحِرِ، فَوَضَعَ مُرْقِدًا فِي شَرَابِهِ.

وَمَا إِنْ شَرِبَهُ «يَاقُوتٌ» حَتَّى غَابَ عَنِ الْوُجُودِ، وَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ خَائِرَ الْقُوَى، كَأَنَّهُ مَيِّتٌ لَا حَرَاكَ بِهِ.

وَمَا هَمَّ «مُسَابِقٌ» بِذَبْحِ السَّاحِرِ الْخَبِيثِ، حَتَّى تَمَثَّلَ لِعَيْنَيهِ مَا حَدَثَ فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ، وَخَشِيَ أَنْ يَتَكَرَّرَ مَا رَآهُ فِيهَا، فَتَمَلَّكَهُ الْفَزَعُ.

وَأَيْقَنَ أَنَّ السَّاحِرَ لَا بُدَّ مُقْتَصٌّ مِنْهُ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، بَعْدَ أَنْ عَفَا عَنْهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَآثَرَ النَّجَاةَ وَالْهَرَبَ، وَأَسْرَعَ إِلَى بَابِ الْحُجْرَةِ، فَفَتَحَهُ.

وَمَا خَطَا بِضْعَ خُطُوَاتٍ حَتَّى لَقِيَهُ رَسُولٌ مِنْ كِبَارِ السَّحَرَةِ، أَوْفَدَهُ مَوْلَاهُ «سَيْفُ الْيَمَنِ» لِنَجْدَتِهِ، بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَهُ حُكَمَاؤُهُ بِمَا يَلْقَاهُ فِي أَسْرِ «يَاقُوتٍ» مِنْ عَنَتٍ.

وَمَا إِنْ رَأَى «مُسَابِقٌ» رَسُولَ مَوْلَاهُ، حَتَّى عَاوَدَهُ الِاطْمِئْنَانُ.

فَابْتَدَرَهُ صَاحِبُهُ قَائِلًا:

«عُدْ يَا «مُسَابِقُ»، مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ، وَاذْبَحِ السَّاحِرَ بِسِكِّينِكَ، فَقَدْ حَانَ أَجَلُهُ، وَلَنْ يَنَالَكَ مِنْهُ سُوءٌ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ.

وَهَا أَنَا ذَا أَقِفُ فِي مَكَانِي لِأَحْرُسَكَ، وَأُنْجِيَكَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ.»

فَفَرِحَ «مُسَابِقٌ» بِمَا سَمِعَ، وَاسْتَرَدَّ مَا فَقَدَهُ مِنْ شَجَاعَةٍ، وَعَادَ إِلَى السَّاحِرِ، فَذَبَحَهُ مِنَ الْوَرِيدِ إِلَى الْوَرِيدِ، وَخَلَّصَ أَتْبَاعَهُ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْطَانِ الْمَرِيدِ (الْخَبِيثِ الْمُتَمَرِّدِ الشِّرِّيرِ).

الْفَصْلُ السَّابِعُ

(١) فِي مَصْنَعِ الزُّجَاجِ

– أَيُّ عَالَمٍ بَهِيجٍ مِنْ عَوَالِمِ الْمَعْرِفَةِ، فَتَحْتَ آفَاقَهُ يَا أَبِي، بِمَا جَلَوْتَهُ لَنَا مِنَ الْحَقَائِقِ، وَمَا قَصَصْتَهُ عَلَيْنَا مِنَ الْأَخْيِلَةِ، فِي اللَّيَالِي السَّابِقَةِ!

– إِنَّ خَيْرَ وَسِيلَةٍ — يَا أَبْنَائِي الْأَعِزَّاءَ — لِمَعْرِفَةِ صِنَاعَةِ الزُّجَاجِ، هِيَ أَنْ نَذْهَبَ إِلَى بَعْضِ مَصَانِعِهِ.

وَقَدْ كَانَ مِنْ حُسْنِ الْحَظِّ أَنَّ لِي صَدِيقًا صَحِبْتُهُ، مُنْذُ كُنَّا طَالِبَيْنِ فِي أَوَّلِ عَهْدِنَا بِالدِّرَاسَةِ، وَهُوَ الْآنَ يُدِيرُ أَحَدَ مَصَانِعِ الزُّجَاجِ.

وَقَدِ اسْتَأْذَنْتُهُ فِي اصْطِحَابِكُمْ غَدًا لِزِيَارَةِ مَصْنَعِهِ، فَلَمْ يَكُنْ أَبْهَجَ إِلَى نَفْسِهِ مِنْ تَلْبِيَةِ هَذِهِ الرَّغْبَةِ.

وَقَدِ اتَّفَقْنَا عَلَى أَنْ يَكُونَ غَدًا مَوْعِدُ هَذِهِ الزِّيَارَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ. وَسَتَذْهَبُ بِنَا السَّيَّارَةُ إِلَى الْمَصْنَعِ فِي زَمَنٍ قَلِيلٍ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَلَا تَسَلْ عَنْ فَرَحِ الْأُسْرَةِ حِينَ جَاءَ الْغَدُ، وَذَهَبَتْ بِهِمُ السَّيَّارَةُ إِلَى مَصْنَعِ الزُّجَاجِ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ فِي ضَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ.

وَكَانَ مُدِيرُهُ مِثَالًا لِلدَّمَاثَةِ وَاللُّطْفِ، وَسَعَةِ الثَّقَافَةِ وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ. وَقَدْ رَحَّبَ بِزَائِرِيهِ أَكْرَمَ تَرْحِيبٍ، وَأَدْخَلَهُمْ أَوَّلَ حُجْرَاتِ الْمَصْنَعِ الْكَبِيرِ، وَهِيَ بَهْوٌ فَسِيحٌ يَتَخَلَّلُهُ الْهَوَاءُ، وَقَالَ:

«انْظُرُوا هَذِهِ الْأَكْيَاسَ، إِنَّهَا تَحْوِي مَادَّةَ «السِّيلِيسِ». وَهُنَاكَ الصُّودَا وَالْبُوتَاسَا. وَهَذِهِ هِيَ الْمَوَادُّ الْأَوَّلِيَّةُ الضَّرُورِيَّةُ.

وَمِنْ هَذِهِ الْمَوَادِّ — مُنَقَّاةً — يُصْنَعُ زُجَاجُ النَّوَافِذِ وَآلَاتُ الْكِيمْيَاءِ (الْأَدَوَاتُ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الْكِيمْيَاوِيُّونَ فِي مَعَامِلِهِمْ)، وَأَكْوَابُ الشَّرَابِ، وَأَقْدَاحُ الشَّايِ.»

– مَاذَا تَعْنِي بِالسِّيلِيسِ؟

– هُوَ «أُكْسِيدُ السِّيلِسْيُومِ»، وَهُوَ رَمْلٌ نَاعِمٌ جِدًّا.

تَأَمَّلُوا — أَيُّهَا الْأَعِزَّاءُ — فِي هَذِهِ الْوَرَقَةِ الزُّجَاجِيَّةِ الشَّفَّافَةِ الْبَيْضَاءِ، أَلَا تَجِدُونَهَا غَايَةً فِي الصَّقْلِ وَالنَّقَاءِ؟ وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكُمْ، فَقَدْ صُنِعَتْ مِنَ الْمَوَادِّ الشَّفَّافَةِ الَّتِي ذَكَرْتُهَا لَكُمْ.

– قُلْتَ لَنَا: إِنَّ «السِّيلِسْيُومَ» هُوَ رَمْلٌ نَاعِمٌ جِدًّا، فَأَيْنَ يُوجَدُ؟

– مَا أَكْثَرَ مَا تَجِدونَهُ فِي رِمَالِ «مِصْرَ»؛ فِي رِمَالِ «الْأَهْرَامِ»، وَفِي رِمَالِ «الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ»، وَلَعَلَّ «أُسْوَانَ» وَ«الْفَيُّومَ» هُمَا أَغْنَى الْمَنَاطِقِ بِهِ. وَالسِّيلِيسُ — كَمَا قُلْتُ لَكُمْ — هُوَ أَهَمُّ الْمَوَادِّ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَيْهَا صِنَاعَةُ الزُّجَاجِ.

– فَأَيْنَ تُوجَدُ بَقِيَّةُ الْمَوَادِّ الْأُخْرَى!

أَيُمْكِنُ الْعُثُورُ عَلَيْهَا فِي «مِصْرَ»؟

– لَا مِرَاءَ فِي هَذَا، أَيُّهَا الْأَعِزَّاءُ، فَعِنْدَنَا الْجِيرُ وَالصُّودَا وَالْمَنْجَنِيزُ وَالْبُوتَاسَا، وَهَذِهِ هِيَ أَهَمُّ الْعَنَاصِرِ الَّتِي نَحْتَاجُ إِلَيْهَا.

أَمَّا بَقِيَّةُ الْمَوَادِّ فَهِيَ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ؛ لِأَنَّ مَا نَطْلُبُهُ مِنْهَا لَا يَتَجَاوَزُ مَقَادِيرَ قَلِيلَةً مَيْسُورَةً، لَا يَعِزُّ اسْتِيرَادُهَا، وَلَا يَصْعُبُ الْحُصُولُ عَلَيْهَا.

وَلَا رَيْبَ أَنَّكُمْ عَرَفْتُمْ — مِمَّا قَرَأْتُمُوهُ — أَنَّ بَرَاعَةَ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ قَدْ بَلَغَتْ حَدًّا يَدْعُو إِلَى الْإِعْجَابِ؛ فَقَدْ كَانُوا أَوَّلَ مَنْ وُفِّقَ إِلَى اخْتِرَاعِهِ مُنْذُ أَقْدَمِ الْعُصُورِ، ثُمَّ حَالَفَهُمُ التَّوْفِيقُ، فَتَدَرَّجُوا فِي تَجْوِيدِهِ، مِنْ فَنٍّ إِلَى فَنٍّ، حَتَّى تَمَكَّنُوا مِنْ صَوْغِ نَفَائِسَ مِنْ تُحَفِهِ وَطَرَائِفِهِ، لَا تَكَادُ تَخْتَلِفُ فِي مَنْظَرِهَا وَلَأْلَائِهَا عَنِ الْحِجَارَةِ الْكَرِيمَةِ.

– وَلَوْ ذَهَبْتُمْ إِلَى دَارِ الْآثَارِ، لَرَأَيْتُمْ مَا يُبْهِرُ أَنْظَارَكُمْ مِنْ بَدِيعِ الثُّرَيَّا وَالْمَصَابِيحِ الزُّجَاجِيَّةِ.

لَقَدْ شَاءَ اللهُ أَنْ تَزْدَهِرَ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ الْمِصْرِيَّةُ، فَهَيَّأَ لَهَا الْأَسْبَابَ.

وَهَكَذَا اجْتَمَعَ نَشَاطُ «الْفِينِيقِيِّينَ» وَبَرَاعَتُهُمْ فِي التِّجَارَةِ، إِلَى تَجْوِيدِ «الْمِصْرِيِّينَ» وَبَرَاعَتِهِمْ فِي الصِّنَاعَةِ، فَرَاجَتْ صِنَاعَةُ الزُّجَاجِ بِفَضْلِ مَا بَذَلَهُ «الْفِينِيقِيُّونَ» مِنْ جُهُودٍ مَوْصُولَةٍ فِي نَقْلِهِ إِلَى جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْعَالَمِ.

وَاشْتَدَّ إِعْجَابُ «الرُّومَانِيِّينَ»، بِمَا رَأَوْهُ فِي «مِصْرَ» مِنْ طَرَائِفِ صُنْعِهِ، فَفَرَضُوا عَلَى الْمِصْرِيِّينَ ضَرِيبَةً مِنَ التُّحَفِ الزُّجَاجِيَّةِ يُصَدِّرُونَهَا إِلَى «رُومَةَ».

فَلَمَّا وَلِيَ «نِيرُونُ» الْحُكْمَ، اشْتَدَّ إِعْجَابُهُ بِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ، وَتَمَلَّكَتْهُ الْحَمَاسَةُ لِاقْتِبَاسِهَا، وَإِدْخَالِهَا إِلَى «رُومَةَ». فَاسْتَقْدَمَ طَائِفَةً مِنْ مَهَرَةِ الصُّنَّاعِ الْمِصْرِيِّينَ الْبَرَعَةِ، خَلَقُوا فِيهَا ثَوْرَةً صِنَاعِيَّةً، آتَتْ أَطْيَبَ الثَّمَرَاتِ.

وَكَانَ لِلْمِصْرِيِّينَ فَضْلُ تَعْرِيفِ «الرُّومَانِ» بِهَذَا الْفَنِّ الزُّجَاجِيِّ، وَالتَّمْكِينِ لِصِنَاعَتِهِ فِي «رُومَةَ»، حَيْثُ انْتَقَلَ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ بُلْدَانِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى.

– تَعْنِي أَنَّ «رُومَةَ» قَبَسَتْ مِنْ «مِصْرَ» صِنَاعَةَ الزُّجَاجِ؟

– نَعَمْ، ثُمَّ نَقَلَتْهَا الْبِلَادُ الْأُخْرَى عَنْ «رُومَةَ»، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ عَرَفَتْهَا «فَرَنْسَا» وَ«إِسْبَانْيَا» وَغَيْرُهُمَا.

وَمَا زَالَتْ تَنْتَقِلُ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ فِي مَدِينَةِ «الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ»، فِي عَهْدِ قُسْطَنْطِينَ، فَكَانَ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْعَامِلِينَ عَلَى تَشْجِيعِهَا، وَالتَّمْكِينِ لَهَا فِي بِلَادِهِ.

وَكَانَتْ «رُومَةُ» شَدِيدَةَ الْحِرْصِ عَلَى الِاحْتِفَاظِ بِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ — حِينَ قَبَسَتْهَا — فَلَمْ تَسْمَحْ لِغَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ أَنْ تَطَّلِعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهَا، فَفَرَضَتْ عُقُوبَةَ الْمَوْتِ عَلَى كُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِإِذَاعَةِ شَيْءٍ مِنْهَا، وَحَصَرَتْ هَذِهِ الصِّنَاعَةَ وَعُمَّالَهَا فِي جَزِيرَةِ «الْبُنْدُقِيَّةِ»، وَفَرَضَ حُكَّامُ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ عُقُوبَةَ الْإِعْدَامِ عَلَى كُلِّ مَنْ يُحَاوِلُ إِذَاعَتَهَا.

– فَهَلْ بَقِيَ السِّرُّ مَكْتُومًا؟

– هَيْهَاتَ! فَقَدْ تَسَرَّبَ — كَمَا عَلِمْتُمْ — إِلَى «فَرَنْسَا» وَ«إِسْبَانْيَا» وَ«إِنْجِلْتِرَا» وَ«بَلْجِيكَا» وَ«أَلْمَانْيَا».

– كُلُّ سِرٍّ جَاوَزَ الِاثْنَيْنِ ذَاعَ.

– تُرَى هَلْ يُصْنَعُ زُجَاجُ الْمَرَايَا مِنْ هَذِهِ الْمَوَادِّ الَّتِي يُصْنَعُ مِنْهَا الزُّجَاجُ؟

– زُجَاجُ الْمَرَايَا لَا يَكَادُ يَخْتَلِفُ عَنْهُ فِي تَرْكِيبِهِ. وَالْمُهِمُّ فِي زُجَاجِ الْمَرَايَا لَيْسَ تَرْكِيبُهُ، بَلْ هُوَ طَرِيقَةُ صُنْعِهِ وَصَقْلِهِ حَتَّى يَبْدُو شَفَّافًا تَمَامًا.

– وَزُجَاجُ الْقَوَارِيرِ؟

– الشَّائِعُ الْمُتَّبَعُ — فِي صِنَاعَتِهِ — أَنْ يَكُونَ مِزَاجًا مِنْ كَرْبُونَاتِ الصُّودَا وَالرَّمْلِ وَأُكْسِيدِ الْحَدِيدِ وَالْمَنْجَنِيزْيَا. وَنظَرًا لِأَنَّ زُجَاجَ الْقَوَارِيرِ هُوَ — عَلَى الْأَغْلَبِ — مُلَوَّنٌ، فَإِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ فِي صِنَاعَتِهِ رَمْلٌ أَقَلُّ نَقَاءً.

– مَا بَالُنَا لَا نَرَى هَذَا الزُّجَاجَ فِي مِثْلِ بَيَاضِ زُجَاجِ النَّوَافِذِ؟

– إِنَّ اللَّوْنَ الْأَخْضَرَ الدَّاكِنَ الَّذِي تَتَمَيَّزُ بِهِ أَكْثَرُ الْقَوَارِيرِ، إِنَّمَا يَنْشَأُ مِنْ إِضَافَةِ أُكْسِيدِ الْحَدِيدِ.

– لِمَاذَا تَذْكُرُ دَائِمًا كَرْبُونَاتِ الصُّودَا؟ أَهِيَ لَازِمَةٌ دَائِمًا فِي صُنْعِ الزُّجَاجِ؟

– الْمَادَّةُ الْأَسَاسِيَّةُ فِي صُنْعِ الزُّجَاجِ هِيَ الرَّمْلُ، وَمِنْهُ يَتَكَوَّنُ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِ وَزْنِهِ، إِلَّا أَنَّ الرَّمْلَ لَا يَنْصَهِرُ إِلَّا فِي دَرَجَةِ حَرَارَةٍ عَالِيَةٍ؛ لِذَلِكَ يُضَافُ إِلَيْهِ مَادَّةٌ تُخَفِّضُ مِنْ دَرَجَةِ انْصِهَارِهِ، وَهِيَ كَرْبُونَاتُ الصُّودَا أَوْ كَرْبُونَاتُ الْبُوتَاسْيُومِ، وَهِيَ الْمُسَمَّاةُ: «الْبُوتَاسَا»، وَلَكِنْ بِاتِّحَادِ الرَّمْلِ مَعَ كَرْبُونَاتِ الصُّودَا أَوِ الْبُوتَاسَا، تَتَكَوَّنُ مَادَّةٌ تَتَأَثَّرُ بِالْمَاءِ تَأَثُّرًا شَدِيدًا، فَمِنْ هُنَا وَجَبَ إِضَافَةُ مَادَّةٍ ثَالِثَةٍ هِيَ: كَرْبُونَاتُ الْكَلْسِيُومِ؛ أَيِ الْجِيرُ.

– وَزُجَاجُ «بُوهِمْيَا» الْمَشْهُورُ، أَتُرَاهُ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ؟

– نَعَمْ، فَهُوَ زُجَاجٌ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ نَاصِعِ الْبَيَاضِ، فَهُوَ يُصْنَعُ مِنَ الرَّمْلِ النَّقِيِّ وَالْبُوتَاسَا وَالْجِيرِ.

– مَاذَا تَعْنِي بِالرَّمْلِ النَّقِيِّ؟

– الرَّمْلُ النَّقِيُّ فِي صِنَاعَةِ الزُّجَاجِ هُوَ الْأَكْثَرُ خُلُوًّا مِنْ أُكْسِيدِ الْحَدِيدِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْأُكْسِيدَ — كَمَا ذَكَرْتُ لَكَ — يُلَوِّنُ الزُّجَاجَ الْأَخْضَرَ.

– وَهَلْ يُوجَدُ رَمْلٌ خَالٍ تَمَامًا مِنْ أُكْسِيدِ الْحَدِيدِ؟

– لَا يُوجَدُ مُطْلَقًا؛ لِذَلِكَ تُسْتَعْمَلُ عِدَّةُ طُرُقٍ لِلتَّخَلُّصِ — جُهْدَ الْمُسْتَطَاعِ — مِنْ تَأْثِيرِ أُكْسِيدِ الْحَدِيدِ السَّيِّءِ عَلَى الزُّجَاجِ.

– وَالزُّجَاجُ الْبَلُّورُ (الْكِرِيسْتَالُ)، هَلْ هُوَ نَوْعٌ آخَرُ غَيْرُ زُجَاجِ «بُوهِمْيَا»؟

– كَلَّا، بَلْ هُوَ مِنْ نَفْسِ النَّوْعِ. إِلَّا أَنَّهُ يُسْتَبْدَلُ بِمَادَّةِ الْجِيرِ مَادَّةُ «الْمِينْيُومِ».

– مَاذَا تَعْنِي بِـ «الْمِينْيُومِ»؟

– هُوَ أُكْسِيدُ الرَّصَاصِ الشَّدِيدُ الِاحْمِرَارِ.

وَهُنَا رَأَى مُدِيرُ الْمَصْنَعِ «ثَرْوَةَ» وَإِخْوَتَهُ يُدَوِّنُونَ — فِي أَوْرَاقِهِمْ — مَا يَسْمَعُونَ، فَأَمْلَى عَلَيْهِمُ الْمَقَادِيرَ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا صَانِعُ الْبَلُّورِ، وَهِيَ:

(١) مِائَةُ جُزْءٍ مِنَ الرَّمْلِ الْأَبْيَضِ النَّاعِمِ.
(٢) سِتَّةٌ وَسِتُّونَ جُزْءًا مِنَ الرَّصَاصِ الْأَحْمَرِ.
(٣) ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ جُزْءًا مِنْ كَرْبُونَاتِ الْبُوتَاسْيُومِ (الْبُوتَاسَا).
(٤) عَشْرَةُ أَجْزَاءٍ مِنَ النَّتْرَاتِ.
(٥) مِنْ سِتِّينَ جُزْءًا إِلَى مِائَةٍ، مِنْ حُطَامِ الزُّجَاجِ (الزُّجَاجِ الْمَكْسُورِ).

وَسَأَلَهُ «ثَرْوَةُ»، يَسْتَزِيدُهُ بَيَانًا عَنِ الْمِينْيُومِ: أُكْسِيدِ الرَّصَاصِ الْأَحْمَرِ.

فَقَالَ: «اعْلَمْ — يَا عَزِيزِي — أَنَّ هَذَا الْمِينْيُومَ هُوَ الَّذِي نَسْتَخْدِمُ لَوْنَهُ الْأَحْمَرَ الْجَمِيلَ دِهَانًا لِلْحَدِيدِ، لِيَقِيهِ مِنَ الصَّدَأِ.»

– وَلَكِنْ، مَا بَالُ لَوْنِهِ لَا يَظْهَرُ فِي الْبَلُّورِ؟

– لَا بَقَاءَ لِلَّوْنِ إِذَا ذَابَ، عَلَى أَيِّ حَالٍ.

وَلَكِنَّ فَائِدَةَ هَذَا الرَّصَاصِ أَنَّهُ يَزِيدُ فِي وَزْنِ الزُّجَاجِ، وَيَجْعَلُهُ أَثْقَلَ مِنَ الزُّجَاجِ الْعَادِيِّ، وَأَكْثَرَ رَنِينًا، كَمَا يَجْعَلُهُ أَسْرَعَ إِلَى الْكَسْرِ.

وَهُوَ يُجَهَّزُ بِعِنَايَةٍ خَاصَّةٍ، وَيُسْتَعْمَلُ لِآلَاتِ النَّظَرِ، وَهُنَاكَ بَلُّورٌ أَصْفَى مِنْ هَذَا وَأَنْقَى، وَمِنْهُ تُصَاغُ الْحُلِيُّ الزُّجَاجِيَّةُ، عَلَى هَيْئَةِ الْمَاسِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ الْأُخْرَى، وَهِيَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَا يَمْزُجُونَهُ بِهَا مِنْ أَلْوَانٍ.

– مَا أَبْدَعَ اخْتِرَاعَ الزُّجَاجِ! فَهُوَ — فِيمَا يُخَيَّلُ لِي — يَحْتَمِلُ كُلَّ مَا يُسْتَوْدَعُ مِنْ أَنْوَاعِ السَّوَائِلِ الَّتِي تَأْكُلُ الْخَشَبَ وَالْحَدِيدَ.

– لَا تَطْمَئِنِّي إِلَى هَذَا الرَّأْيِ — يَا بُنَيَّتِي — فَإِنَّ أَجْمَلَ نَوْعٍ مِنَ الزُّجَاجِ إِذَا كَانَ فِي تَرْكِيبِهِ كَثِيرٌ مِنَ الصُّودَا أَوِ الْبُوتَاسَا، لَا بُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ الْمَاءُ إِذَا تَوَالَى عَلَيْهِ، وَطَالَ بِهِ الزَّمَنُ.

أَلَمْ تُلَاحِظِي أَلْوَاحًا مِنَ الزُّجَاجِ تَغَيَّرَ لَوْنُهَا مِنَ الصَّفَاءِ إِلَى الْقَتَامَةِ، لِطُولِ الْقِدَمِ، وَأَصْبَحَتْ أَلْوَانُ «قَوْسِ قُزَحَ» تَنْعَكِسُ عَلَيْهَا؟

– صَدَقْتَ. وَطَالَمَا شَهِدْتُ ذَلِكَ فِي نَوَافِذِ الْبُيُوتِ الْقَدِيمَةِ فِي الْخَلَاءِ.

– حَسَنٌ! لَقَدْ رَأَيْتِ كَيْفَ يَتَغَيَّرُ لَوْنُ الزُّجَاجِ بَعْدَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِمِيَاهِ الْأَمْطَارِ سَنَوَاتٍ عِدَّةً، فَلَا يَلْبَثُ أَنْ تَضُرَّ بِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا. عَلَى أَنَّهُ لَنْ يَلْبَثَ أَنْ يَسْتَرِدَّ لَوْنَهُ الْأَوَّلَ إِذَا اسْتَخْدَمْنَا فِي تَنْظِيفِهِ قِطْعَةً رَقِيقَةً مِنَ الْجِلْدِ.

– وَلِفَقَاقِيعِ الصَّابُونِ أَلْوَانُ «قَوْسِ قُزَحَ» أَيْضًا.

– وَكَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي الدَّوَارِقِ الزُّجَاجِيَّةِ، الَّتِي صُنِعَتْ فِي قَدِيمِ الْعُصُورِ، وَلَبِثَتْ مَطْمُورَةً زَمَنًا طَوِيلًا قَبْلَ أَنْ يَهْتَدِيَ الْكَاشِفُونَ إِلَيْهَا.

وَلَمَّا أَتَمَّ مُدِيرُ الْمَصْنَعِ حَدِيثَهُ الْعِلْمِيَّ الشَّائِقَ، صَحِبَ زَائِرِيهِ إِلَى حُجْرَةٍ أُخْرَى فَسِيحَةٍ بِهَا أَفْرَانٌ كَبِيرَةٌ، حِجَارَتُهَا صُلْبَةٌ، لَا تَتَأَثَّرُ بِالْحَرَارَةِ. وَكَانَتِ التَّنَانِيرُ (الْأَفْرَانُ) أَشْبَهَ شَيْءٍ بِقِبَابٍ ذَاتِ فَتَحَاتٍ، تَكْثُرُ فِي بَعْضِهَا، وَتَقِلُّ فِي الْأُخْرَى، وَقَدِ اسْتَعَرَتْ فِيهَا نَارٌ مُتَأَجِّجَةٌ، ذَاتُ حَرَارَةٍ مُرْتَفِعَةٍ، يَنْبَعِثُ مِنْهَا — مَعَ تَيَّارَاتِ الْهَوَاءِ — لَهِيبٌ جَاحِمٌ (مُضْطَرِمٌ).

ثَمَ قَالَ: «فَوْقَ هَذِهِ النِّيرَانِ الْحَامِيَةِ بَوَاتِقُ، مُلِئَتْ كُلُّ بَوْتَقَةٍ بِالسَّائِلِ الزُّجَاجِيِّ. وَهَذِهِ الْبَوَاتِقُ مَكْشُوفَةٌ — كَمَا تَرَوْنَ — وَفِيهَا تَذُوبُ الْمَوَادُّ الَّتِي يُصْنَعُ مِنْهَا الزُّجَاجُ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ.

وَبَوَاتِقُ الْبَلُّورِ كَمَا تَرَوْنَهَا أَمَامَكُمْ مُغَطَّاةٌ؛ لِأَنَّ حَرَارَةَ الْأَتُونِ (الْفُرْنِ) نَاتِجَةٌ مِنَ الْفَحْمِ الْحَجَرِيِّ؛ فَإِذَا غُطِّيَتْ كَانَ ذَلِكَ أَكْفَلَ بِنَقَائِهَا، وَأَدْعَى لِوِقَايَتِهَا مِمَّا يَتَسَاقَطُ مِنْ مَوَادِّهِ الَّتِي تُعَكِّرُ صَفَاءَهَا.

وَهَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تَرَوْنَ فِي الْحُجْرَةِ طَائِفَةً مِنَ الْعُمَّالِ يُمْسِكُونَ بِأَيْدِيهِمْ أَنَابِيبَ طُوَالًا مِنَ الْحَدِيدِ، مَحْفُورَةً، يَضَعُونَهَا فِي الْبَوَاتِقِ الَّتِي يَصْهَرُونَ فِيهَا مَادَّةَ الزُّجَاجِ وَيُذِيبُونَهَا، ثُمَّ يَسْحَبُونَ ذَائِبَهَا الْمَصْهُورَ بِأَسْرَعِ مَا يَسْتَطِيعُونَ؛ فَتَخْرُجُ الْأَنَابِيبُ وَفِي أَطْرَافِهَا أَقْبَاسٌ مِنْ هَذِهِ الْعَجِينَةِ الْمُشِعَّةِ.

انْظُرُوا: هَا هُوَ ذَا أَحَدُ الْأَبْهَاءِ الطَّوِيلَةِ الْمُعْتِمَةِ، وَهَا هُوَ أَتُونٌ (فُرْنٌ) شَدِيدُ الْحَرَارَةِ، مُسْتَعِرُ اللَّهَبِ، وَهَا هُوَ ذَا عَامِلٌ قَوِيُّ الْجِسْمِ، مَفْتُولُ السَّاعِدَيْنِ، يُمْسِكُ بِيَدِهِ أُنْبُوبَةً طَوِيلَةً مُجَوَّفَةً؛ يُدْخِلُهَا فِي هَذَا الْأَتُونِ الْمُلْتَهِبِ ثُمَّ يُخْرِجُهَا مِنْهُ، وَفِي طَرَفِهَا كُرَةٌ مِنَ الْعَجِينِ الزُّجَاجِيِّ عَالِقَةٌ بِهِ.

هَا هُوَ ذَا يُحَرِّكُهَا أَمَامَكُمْ — فِي الْهَوَاءِ — حَرَكَاتٍ مُتَّئِدَةً بَطِيئَةً. ثُمَّ يُدْنِي طَرَفَ الْأُنْبُوبَةِ مِنْ فَمِهِ حَتَّى تَلْمُسَ شَفَتَيْهِ.

وَيَظَلُّ يَنْفُخُ فِي الْأُنْبُوبَةِ، مُتَرَفِّقًا فِي النَّفْخِ. فَمَاذَا تَرَوْنَ الْآنَ؟

هَا هِيَ ذِي كُرَةُ الْعَجِينِ الْمُلْتَهِبِ تَنْتَفِخُ.

فَأَيَّ شَكْلٍ تَرَوْنَهَا قَدِ اتَّخَذَتْ؟»

– أَصْبَحَتْ عَلَى هَيْئَةِ بَصَلَةٍ!

– صَدَقْتَ، وَأَجَدْتَ التَّشْبِيهَ، أَيُّهَا الصَّغِيرُ الْعَزِيزُ.

وَهَا هُوَ ذَا يُدِيرُ الْأُنْبُوبَةَ فِي الْهَوَاءِ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَا يَزَالُ يُحَرِّكُهَا مِنْ جِهَةٍ إِلَى أُخْرَى، ثُمَّ يُعِيدُ نَفْخَهَا، كَمَا بَدَأَهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَكَيْفَ تَرَوْنَهَا الْآنَ؟

– أَصْبَحَتْ عَلَى هَيْئَةِ كُرَةٍ تَامَّةِ التَّكْوِيرِ.

– فَمَاذَا يَصْنَعُ بِالْكُرَةِ الْمُلْتَهِبَةِ؟

– مَا شَاءَ مِنْ أَنْوَاعِ الزُّجَاجِ. وَالْآنَ أَنْتَقِلُ بِكُمْ لِتَشْهَدُوا صِنَاعَةَ الْقَوَارِيرِ: عِنْدَمَا يَسْتَخْرِجُ الْعَامِلُ بِهَذِهِ الْأُنْبُوبَةِ مَا يَكْفِي مِنَ الزُّجَاجِ السَّائِلِ، يُدِيرُ الْأُنْبُوبَةَ بِسُرْعَةٍ فِي الْهَوَاءِ، بِحَرَكَةٍ تُمَاثِلُ حَرَكَةً مِنْ طَارِقِ جَرَسٍ، ثُمَّ يَنْفُخُ لِيُدَوِّرَ الْقِطْعَةَ. فَإِذَا اسْتَدَارَتْ، وَضَعَهَا فِي قَالَبٍ، وَلَا يَزَالُ يَنْفُخُ — وَهُوَ يُدِيرُهَا — حَتَّى يُسَوِّيَهَا قَارُورَةً عَلَى أَيِّ شَكْلٍ شَاءَ.

فَإِذَا تَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ، أَضَافَ إِلَى عُنُقِهَا قِطْعَةً مِنَ الْعَجِينِ الزُّجَاجِيِّ لِيُهَيِّئَ لَهَا فَمًا مُنَاسِبًا، يَسْتَقِرُّ فِيهِ سِدَادُهَا، ثُمَّ يُعِيدُ تَسْخِينَ الْقَارُورَةِ لِتُصْبِحَ صَالِحَةً لِلِاسْتِعْمَالِ، مُعَدَّةً لِلْبَيْعِ.



– مَا أَشَقَّهُ عَمَلًا، وَمَا أَتْعَبَهَا مِهْنَةً لِهَؤُلَاءِ الرِّجَالِ!

– إِنَّ الْحَيَاةَ جِهَادٌ حَافِلٌ بِأَلْوَانِ الْمَتَاعِبِ كَمَا تَعْلَمُونَ. وَلَوْلَا الْمَشَقَّةُ لَمَا عُرِفَ فَضْلُ الرَّاحَةِ!

وَفِي مَكَانٍ آخَرَ تَرَوْنَ كَيْفَ يُصْنَعُ زُجَاجُ النَّوَافِذِ.

وَأَلْوَاحُ هَذَا الزُّجَاجِ يُخْرِجُهَا الْعَامِلُ، كَمَا يُخْرِجُ زُجَاجَ الْقَوَارِيرِ؛ أَعْنِي أَنَّهُ يَتَلَقَّفُ بِأُنْبُوبَتِهِ قَبَسًا مِنَ الزُّجَاجِ السَّائِلِ، ثُمَّ يُدَحْرِجُهُ عَلَى مَائِدَةٍ مِنَ الرُّخَامِ.

وَيَظَلُّ يُوالِي نَفْخَهُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ، حَتَّى يَنْتَفِخَ.

ثُمَّ يَتَنَاوَلُ أَقْبَاسًا جَدِيدَةً مِنَ الزُّجَاجِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ، وَيَعُودُ إِلَى نَفْخِهَا وَتَدْوِيرِهَا بِعَصَاهُ الْأُنْبُوبِيَّةِ الْمُتَرَجِّحَةِ، كَمَا كَانَ يَصْنَعُ الْقَوَارِيرَ.

وَمَتَى اتَّخَذَتِ الْكُرَةُ الزُّجَاجِيَّةُ هَيْئَةَ أُسْطُوَانَةٍ ذَاتِ ثَخَانَةٍ كَافِيَةٍ، أَسْرَعَ عَامِلٌ آخَرُ إِلَى طَرَفَيْهَا فَقَطَعَهُمَا، ثُمَّ انْثَنَى إِلَى الْأُسْطُوَانَةِ فَشَقَّهَا، مُسْتَعِينًا عَلَى ذَلِكَ بِحَدِيدَةٍ شَدِيدَةِ الْحَرَارَةِ حَمْرَاءِ اللَّهَبِ، وَقَطْرَةٍ مِنَ الْمَاءِ.

ثُمَّ يُلَيِّنُ الزُّجَاجَ فِي الْفُرْنِ ثُمَّ يَضَعُهُ عَلَى مَائِدَةٍ مُسَطَّحَةٍ، حَيْثُ تَدْحُوهُ الْأُسْطُوَانَةُ الْخَشَبِيَّةُ الَّتِي تَرَوْنَهَا أَمَامَكُمْ.

وَبِهَذَا يَتِمُّ صُنْعُ الْوَرَقَةِ الزُّجَاجِيَّةِ، فَيُسَوِّيهَا الصُّنَّاعُ فِيمَا يَخْتَارُونَهُ لَهَا مِنْ أَشْكَالٍ.

وَأَغْلَبُ مَا تَرَوْنَهُ مِنَ الْأَكْوَابِ وَالدَّوَارِقِ وَالْأَوَانِي وَالْمَلَّاحَاتِ وَمَا إِلَيْهَا، قَدْ أَعْدَدْنَا لِصُنْعِهَا قَوَالِبَ وَفْقَ مَا نَخْتَارُهُ لَهَا مِنْ أَحْجَامٍ وَأَشْكَالٍ وَأَنْمَاطٍ.

وَانْتَقَلَ بِهِمْ مُدِيرُ الْمَصْنَعِ إِلَى بَهْوٍ آخَرَ، لِيُطْلِعَهُمْ عَلَى مَا يُخْرِجُهُ الْمَصْنَعُ مِنْ أَشْيَائِهِ الْبَلُّورِيَّةِ، كَالثُّرَيَّا (الشَّمْعِدَانِ وَالنَّجَفَةِ) وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَوَانِي الْفَنِّيَّةِ، وَالتُّحَفِ الزُّجَاجِيَّةِ.

وَلَا تَسَلْ عَنْ إِعْجَابِ الزَّائِرِينَ بِمَا رَأَوْهُ مِنْ أَبْرَاجٍ مُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ، أُعِدَّتْ لِتَنْظِيفِ الزُّجَاجِ وَالْبَلُّورِ وَنَحْتِهِمَا وَصَقْلِهِمَا. وَأَرَاهُمْ — عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهَا — عَجَلَاتٍ مِنَ الْحَدِيدِ، مَعَ رَمْلٍ مُبَلَّلٍ لِتَرْقِيقِهِمَا، وَقَالَ:

«ثُمَّ يَأْتِي دَوْرُ التَّنْظِيفِ وَالصَّقْلِ، فَنَخْتَارُ لِكُلِّ نَوْعٍ مَا يُلَائِمُهُ مِنْ أَدَوَاتِهِمَا؛ فَالْعَجَلَاتُ الْخَشَبِيَّةُ لِلزُّجَاجِ الْعَادِيِّ، وَمَسْحُوقُ الْحَجَرِ الْإِسْفِنْجِيِّ لِأَقْدَاحِ الزُّجَاجِ.

أَمَّا الْبَلُّورُ فَقَدْ أَعْدَدْنَا لَهُ مَسْحُوقَ الْقَصْدِيرِ؛ لِأَنَّ الْمَوَادَّ الْأُخْرَى تَتْرُكُ فِيهِ خُطُوطًا.»

وَهُنَا سَأَلَهُ «ثَرْوَةُ»: «مَاذَا تَعْنِي — يَا سَيِّدِي — بِالْحَجَرِ الْإِسْفِنْجِيِّ؟»

فَقَالَ الْمُدِيرُ: «هَا هُوَ ذَا الْحَجَرُ الْإِسْفِنْجِيُّ أَوِ الْكِدَانُ (Piérre Foncée) ويُطْلِقُ عَلَيْهِ الْعَامَّةُ اسْمَ: الشَّوَّافَةِ، أَوْ حَجَرِ الْخَفَّانِ.»

ثُمَّ انْتَقَلَ بِهِمْ إِلَى نَاقِشِي الزُّجَاجِ، وَقَالَ لَهُمْ:

«هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تَرَوْنَ نَقَشَةَ الزُّجَاجِ، وَهُمْ يُغَطُّونَهُ بِطَبَقَةٍ مِنَ الدِّهَانِ، مُؤَلَّفَةٍ مِنْ مَادَّتَيِ الشَّمْعِ وَالتَّرَبَنْتِينِ.

ثُمَّ يُثَبِّتُونَ عَلَيْهِ بِمِنْقَاشِهِمْ مَا يَخْتَارُونَهُ مِنْ رُسُومٍ.

ثُمَّ يَضَعُونَ الزُّجَاجَ تَحْتَ التَّأْثِيرِ الْأَكَّالِ لِحَامِضِ الْ «فِلِيُورِيدْرِيكِ»، الذَّيَ يَأْكُلُ الْأَجْزَاءَ غَيْرَ الْمُغَطَّاةِ. وَيُنْحَتُ الْبَلُّورُ — عَلَى الْأَغْلَبِ — كَمَا يُنْحَتُ زُجَاجُ النَّظَّارَاتِ.

وَإِلَيْكُمْ جَمْهَرَةً تَرَوْنَهَا أَمَامَكُمْ، بَعْدَ أَنْ تَمَّ صُنْعُهَا لِيُسْتَعْمَلَ بَعْضُهَا نَظَّارَاتٍ عَادِيَّةً، وَالْبَعْضُ الْآخَرُ لِلنَّظَرِ الطَّوِيلِ.»

(٢) اخْتِرَاعُ النَّظَّارَاتِ

فَسَأَلَهُ «مَحْمُودٌ»: «كَيْفَ اخْتُرِعَتِ النَّظَّارَاتُ؟»

فَابْتَهَجَ مُدِيرُ الْمَصْنَعِ لِهَذَا السُّؤَالِ، الذَّي يَنُمُّ عَنْ ذَكَاءِ سَائِلِهِ، وَهَشَّ لَهُ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

«لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ أَنْ يَتَكَهَّنُ الْإِنْسَانُ بِالْمُصَادَفَاتِ الْمُتَتَابِعَةِ الَّتِي انْتَهَتْ إِلَى اخْتِرَاعِ النَّظَّارَاتِ! عَلَى أَنَّ التَّارِيخَ قَدْ أَثْبَتَ لَنَا بَعْضَ حَوَادِثَ مُفْرَدَةٍ، تُزِيحُ السِّتَارَ قَلِيلًا عَنْ هَذَا السِّرِّ الْمَحْجُوبِ؛ فَقَدْ حَدَّثَ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ «نِيرُونَ» كَانَ يَلْجَأُ إِلَى الزُّمُرُّدِ الْمُقَعَّرِ لِيَتَلَافَى بِهِ قِصَرَ نَظَرِهِ.

وَقَدِ اسْتَطَاعَ بِهَذِهِ النَّظَّارَةِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي اتَّخَذَهَا لِعَيْنَيهِ أَنْ يَرَى — مِنْ خِلَالِ الزُّمُرُّدِ — مَا عَجَزَ عَنْ رُؤْيَتِهِ مِنَ الْمَعَارِكِ، بِالنَّظَرِ الْمُجَرَّدِ.»

– ذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَبْعَدٍ، فَإِنَّ الزُّمُرُّدَةَ الَّتِي لَمْ تُثْقَبْ، أَشْبَهُ شَيْءٍ بِمَا نُشَاهِدُهُ مِنْ عَدَسَاتِ الْمَنَاظِيرِ الْمُقَعَّرَةِ، الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا قِصَارُ النَّظَرِ فِي رُؤْيَةِ الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةِ.

– أَتَعْنِي أَنَّ النَّظَّارَاتِ اخْتُرِعَتْ فِي عَهْدِ «نِيرُونَ»؟

– كَانَ ذَلِكَ مُحْتَمَلًا لَوِ انْتَفَعَ النَّاسُ بِهَذِهِ الْمُلَاحَظَةِ وَتَعَهَّدُوهَا بِالدَّرْسِ.

وَلَكِنَّهَا مَرَّتْ — لِسُوءِ حَظِّهِمْ — دُونَ أَنْ يُفِيدَ مِنْهَا أَحَدٌ، وَبَقِيَتْ فِي طَيِّ الْخَفَاءِ، حَتَّى جَاءَ الْقَرْنُ الرَّابِعَ عَشَرَ.

– كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟ أَلَمْ تَقُلْ لَنَا: إِنَّ الْقُدَمَاءَ قَدْ عَرَفُوا سِرَّ الزُّجَاجِ؟

– ذَلِكَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَطَالَمَا صَنَعُوا مِنْهُ أَشْكَالًا مُتَعَدِّدَةً.

وَكَانَ «سَلَفِينِي» الْفُلُورَنْسِيُّ أَوَّلَ مَنِ اهْتَدَى إِلَى اخْتِرَاعِ النَّظَّارَاتِ — فِيمَا يَقُولُ الْبَاحِثُونَ — فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ طَافَ بِخَيَالِهِ أَنْ يَصْنَعَ نَظَّارَةً مِنَ الزُّجَاجِ عَامَ ١٢٨٥م.

وَقَدْ مَاتَ فِي «فُلُورَنْسَا» عَامَ ١٢١٧م، وَإِنْ جَهِلَ الْبَاحِثُونَ الْوَسِيلَةَ الَّتِي سَلَكَهَا فِي صُنْعِ الْعَدَسَاتِ الَّتِي اخْتَارَهَا لِلنَّظَّارَاتِ.

فَسَأَلَهُ «ثَرْوَةُ»: «وكَيْفَ اهْتَدَى النَّاسُ إِلَى صُنْعِ النَّظَّارَاتِ الْمُقَرِّبَةِ؟»

فَهَشَّ لَهُ الْمُدِيرُ، وَقَالَ لَهُ، بَعْدَ أَنْ أَثْنَى عَلَى بَرَاعَتِهِ وَمُلَاحَظَتِهِ:

«يَرَى الْبَاحِثُونَ أَنَّ الْمُصَادَفَةَ — وَحْدَهَا — هِيَ الَّتِي كَانَ لَهَا فَضْلُ هَذَا الِاخْتِرَاعِ.

فَفِي يَوْمٍ كَانَ نَجْلٌ صَغِيرٌ لِصَاحِبِ مَحَلِّ نَظَّارَاتٍ هُولَنْدِيٍّ يَلْعَبُ بِزُجَاجَتَيْنِ؛ إِحْدَاهُمَا مُقَعَّرَةٌ، وَالْأُخْرَى مُحَدَّبَةٌ.

فَوَضَعَ الْأُولَى أَمَامَ عَيْنَيْهِ، وَالثَّانِيَةَ فِي مُقَابَلَتِهَا، عَلَى مَسَافَةٍ تَبْعُدُ عَنْهَا قَلِيلًا، فَهَالَهُ مَا رَأَى مِنْ خِلَالِ الزُّجَاجَتَيْنِ!

لَقَدْ كَانَتْ مُفَاجَأَةً عَجِيبَةً لَمْ تَخْطُرْ لَهُ — مِنْ قَبْلُ — عَلَى بَالٍ، فَصَاحَ مِنْ فَرْطِ الدَّهْشَةِ: «مَا لِي أَرَى مَا بَعُدَ مِنَ الْأَشْيَاءِ دَانِيًا إِلَى نَاظِرِي؟»

ثُمَّ أَعَادَ التَّجْرِبَةَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمْ تَتَغَيَّرِ النَّتِيجَةُ، وَتَجَلَّتِ الْحَقِيقَةُ الْجَدِيدَةُ مَاثِلَةً لِعَيْنَيْهِ؛ إِذْ رَأَى بِوُضُوحٍ مَا هُوَ فِي الْجِهَةِ الْأُخْرَى مِنَ الطَّرِيقِ، مِمَّا كَانَ يَسْتَبْهِمُ إِذَا رَآهُ بِعَيْنِهِ الْمُجَرَّدَةِ، دُونَ أَنْ يَسْتَعِينَ بِهَاتَيْنِ الزُّجَاجَتَيْنِ.

فَصَاحَ الصَّغِيرُ يُنَادِي أَبَاهُ! لِيُطْلِعَهُ عَلَى مَا رَآهُ.

وَمَا سَأَلَهُ أَبُوهُ عَمَّا دَهَاهُ، حَتَّى قَالَ لَهُ:

«تَعَالَ — يَا أَبِي — وَانْظُرْ هَذَا الشَّيْءَ الْبَدِيعَ.

هَا هُمَا تَانِ زُجَاجَتَانِ تُقَرِّبَانِ مَا بَعُدَ.»

فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: «مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ جُنِنْتَ يَا وَلَدِي، أَوْ أَصَابَكَ مَسٌّ مِنْ خَبَالٍ!»

فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ: «إِذَنْ فَانْظُرْ بِنَفْسِكَ، لِتَرَى أَعَلَى صَوَابٍ أَنَا أَمْ أَنَا مِنَ الْوَاهِمِينَ.»

وَوَضَعَ تَاجِرُ النَّظَّارَاتِ الزُّجَاجَتَيْنِ كَمَا وَضَعَهُمَا وَلَدُهُ؛ فَرَأَى أَنَّهُ وُفِّقَ إِلَى كَشْفٍ رَائِعٍ عَجِيبٍ، وَرَأَى أَنْ يُثَبِّتَ الزُّجَاجَتَيْنِ، فَوَضَعَهُمَا فِي أُنْبُوبٍ.

وَهَكَذَا وُجِدَ الْمِنْظَارُ الْمُقَرِّبُ الَّذِي أَتَاحَ رُؤْيَةَ مَا بَعُدَ مِنَ الْأَشْيَاءِ، فَفَتَحَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ لِعُيُونِ النَّاسِ.

وَمَا زَالَ الْعِلْمُ يَرْتَقِي بِهِ حَتَّى صَنَعَ الْعُلَمَاءُ مِرْقَبًا (تِلِسْكُوبًا) هَائِلَ الْحَجْمِ، كَبِيرَ النَّفْعِ، لَهُ عَدَسَةٌ مُقَعَّرَةٌ وَزْنُهَا عِشْرُونَ طُنًّا، وَقُطْرُهَا مِائَتَانِ مِنَ الْبُوصَاتِ.

وَكَانَ لِهَذَا الْمِرْقَبِ فَضْلٌ عَظِيمٌ فِي كَشْفِ جَمْهَرَةٍ مِنَ النُّجُومِ، الَّتِي لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُسْتَطَاعِ رُؤْيَتُهَا مِنْ قَبْلُ.

وَقَدْ صُنِعَتْ هَذِهِ الْعَدَسَةُ الْعَظِيمَةُ فِي بَعْضِ مَعَاهِدِ «كَالِيفُرْنِيَا».

فَقَالَ «مَحْمُودٌ»: «وَمَا الْفَائِدَةُ مِنْ تَكْبِيرِ حَجْمِهَا؟»

فَأَجَابَهُ: «كُلَّمَا اتَّسَعَ قُطْرُهَا، زَادَتْ قُدْرَتُهَا عَلَى تَقْرِيبِ مَا بَعُدَ مِنَ الْمَسَافَاتِ، وَالتَّمْكِينِ مِنْ رُؤْيَتِهَا.»

وَسَأَلَتْ «لَيْلَى»: «أَيْنَ هَذَا الْمَرْصَدُ الْهَائِلُ؟»

فَقَالَ: «فِي كَالِيفُرْنِيَا»، عَلَى ذُرْوَةِ جَبَلِ «بَالُومَارَ» فِي حَيِّ «سَانْ بَرْدِنْيُو»، وَقَدْ أُنْشِئَ الْمَرْصَدُ عَلَى هَيْئَةٍ دَائِرَةٍ، قُطْرُهَا ١٢٧ قَدَمًا، وَيَبْلُغُ ارْتِفَاعُ حَوَائِطِهِ سِتِّينَ قَدَمًا.»

وَسَأَلَ «ثَرْوَةُ»: «مَا فَائِدَةُ الْحَوَائِطِ الْمُرْتَفِعَةِ؟»

فَأَجَابَهُ: «لَقَدْ رَفَعُوا بِنَاءَهَا لِيُرَكِّبُوا عَلَيْهَا شَرِيطَيْنِ مِنَ الْقُضْبَانِ الْحَدِيدِيَّةِ.»

فَسَأَلَهُ «مَحْمُودٌ» عَنْ فَائِدَةِ الشَّرِيطَيْنِ، فَقَالَ: «لِتُيَسِّرَ دَوَرَانَ الْمَرْصَدِ عَلَيْهِمَا.»

(٣) دُمُوعُ الزُّجَاجِ

وَبَيْنَمَا الْأَوْلَادُ يَسْمَعُونَ هَذِهِ النَّادِرَةَ، جَاءَهُمْ عَامِلٌ فِي يَدِهِ كُرَةٌ زُجَاجِيَّةٌ صَغِيرَةٌ، تَنْتَهِي بِطَرَفٍ دَقِيقٍ، وَهِي أَشْبَهُ شَيْءٍ بِدَمْعَةٍ جَمَدَتْ وَتَحَجَّرَتْ.

فَقَالَ الْمُدِيرُ: «هَذِهِ نُقْطَةٌ مِنْ زُجَاجٍ سَائِلٍ، أُلْقِيَتْ بَغْتَةً فِي مَاءٍ بَارِدٍ، فَانْعَقَدَتْ وَجَمَدَتْ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ بِاسْمِ: الدُّمُوعِ الزُّجَاجِيَّةِ.

وَسَتَرَوْنَ مَبْلَغَ صَلَابَتِهَا، أَيُّهَا الْأَعِزَّاءُ.»

ثُمَّ تَنَاوَلَ مُدِيرُ الْمَصْنَعِ مِطْرَقَةً، وَوَضَعَ دَمْعَةَ الزُّجَاجِ هَذِهِ عَلَى سِنْدَانٍ، وَضَرَبَ الطَّرَفَ الْكَبِيرَ بِقُوَّةٍ، فَتَحَمَّلَ الضَّرْبَةَ. وَهَشَّ الْأَوْلَادُ كَثِيرًا.

فَقَالَ ثَرْوَةُ: «إِنَّ دُمُوعَ الزُّجَاجِ أَشَدُّ صَلَابَةً مِنَ الْحَدِيدِ، وَمَا أَدْرِي كَيْفَ اكْتَسَبَ الزُّجَاجُ هَذِهِ الصَّلَابَةَ، لَوْلَا أَنَّهُ نَوْعٌ غَيْرُ عَادِيٍّ، نَوْعٌ غَيْرُ مَا عَرَفْنَاهُ!»

فَقَالَ لَهُ الْمُدِيرُ: «لَا يَا صَدِيقِي، بَلْ هُوَ زُجَاجٌ عَادِيٌّ، لَا يَخْتَلِفُ عَمَّا شَهِدْتُمُوهُ! وَسَتَرَوْنَ مِصْدَاقَ ذَلِكَ الْآنَ.»

وَأَخْرَجَ الْعَامِلُ مِنَ الْبَوْتَقَةِ الَّتِي تَحْوِي سَائِلَ الزُّجَاجَاتِ قَلِيلًا مِنَ الْمَادَّةِ السَّائِلَةِ، وَأَلْقَاهَا فِي الْمَاءِ الْبَارِدِ وَبَعْدَ لَحَظَاتٍ أُخْرَى، أَخْرَجَ دَمْعَةً زُجَاجِيَّةً مُمَاثِلَةً لِلدَّمْعَةِ الْأُولَى، فَلَمْ تَتَأَثَّرْ بِأَشَدِّ الضَّرَبَاتِ.

فَقَالَتْ «لَيْلَى»: «يَا لَهَا مِنْ أُعْجُوبَةٍ فَذَّةٍ! إِنَّ الدُّمُوعَ الزُّجَاجِيَّةَ الَّتِي تُصْنَعُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ صَلْدَةٌ لَا تُكْسَرُ، فَلْنَشْتَرِ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الدُّمُوعِ، فَإِنِّي فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا؛ لِأَنِّي وَاثِقَةٌ مِنَ احْتِمَالِهَا.»

فَقَالَ لَهَا الْمُدِيرُ: «خُذِي — يَا بُنَيَّتِي — هَذِهِ الدَّمْعَةَ الزُّجَاجِيَّةَ، مَا دُمْتِ تَرَيْنَهَا عَجِيبَةً.»

وَوَضَعَ دَمْعَةَ الزُّجَاجِ فِي يَدِ الصَّغِيرَةِ.

وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُرِيَهَا طَرَفًا مِنْ عَجَائِبِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ، فَكَسَرَ مِنْ طَرَفِ الدَّمْعَةِ الزُّجَاجِيَّةِ الدَّقِيقِ قِطْعَةً صَغِيرَةً، وَمَا إِنْ فَعَلَ، حَتَّى سَمِعَ الْحَاضِرُونَ صَوْتَ انْفِجَارٍ خَفِيفٍ، تَحَوَّلَتْ دَمْعَةُ الزُّجَاجِ فِي أَثَرِهِ تُرَابًا مَهِيلًا!

فَصَرَخَتْ «لَيْلَى» صَرْخَةَ دَهَشٍ، وَذَهِلَ شَقِيقُهَا أَيْضًا لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ.

فَقَالَ «مَحْمُودٌ»: «مَا أَعْجَبَ مَا نَرَى! إِنَّهُ أَشْبَهُ بِسِحْرِ سَاحِرٍ! وَلَا أَكَادُ أُصَدِّقُ مَا تَرَاهُ عَيْنَايَ! جِسْمٌ يُضْرَبُ بِالْمِطْرَقَةِ ضَرَبَاتٍ فَلَا يَتَأَثَّرُ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ — بِلَمْسَةٍ بَسِيطَةٍ — أَنْ يُسْحَقَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلَ ذَرَّاتٍ مِنَ التُّرَابِ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، كَيْفَ تَمَّ ذَلِكَ؟»

فَضَحِكَ الْمُدِيرُ وَالْعُمَّالُ؛ لِأَنَّهُمْ طَالَمَا رَأَوْا أَمْثَالَ هَذِهِ الدَّهْشَةِ تَبْدُو عَلَى وُجُوهِ مَنْ يَرَوْنَ الدُّمُوعَ الزُّجَاجِيَّةَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَيُقَابِلُونَ بَيْنَ صَلَابَتِهَا وَاسْتِعْصَائِهَا عَلَى الْكَسْرِ، وَبَيْنَ تَفْتِيتِهَا بِأَيْسَرِ جُهْدٍ!

وَقَالَ مُدِيرُ الْمَصْنَعِ: «لَيْسَ مِنَ الْيَسِيرِ أَنْ أَشْرَحَ لَكُمْ ذَلِكَ بِطَرِيقَةٍ عِلْمِيَّةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَشُقُّ عَلَيْكُمُ الْآنَ، وَحَسْبُكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ الْبُرُودَةَ هِيَ — وَحْدَهَا — سَبَبُ مَا رَأَيْتُمُوهُ، وَمِثْلُ ذَلِكَ يَقَعُ أَحْيَانًا فِي الصُّلْبِ.»

وَسَأَلَهُ «ثَرْوَةُ»: وَهَلْ يُمْكِنُ اسْتِخْدَامُ دُمُوعِ الزُّجَاجِ هَذِهِ فِي الصِّنَاعَةِ؟

فَأَجَابَهُ: «لَا يَا صَاحِبِي، وَقَدْ حَاوَلَ بَعْضُ الصَّاغَةِ أَنْ يَثْقُبَهَا، كَمَا يَثْقُبُ اللَّآلِئَ، فَلَمْ يُفْلِحْ.

فَمَا نَفَذَ الْمِثْقَابُ إِلَى دَاخِلِهَا حَتَّى كُسِرَتْ، كَمَا تَحَطَّمَتْ دَمْعَةُ الزُّجَاجِ — أَمَامَكُمْ — حِينَ كَسَرْتُ طَرَفَهَا.»

وَلَا تَسَلْ عَمَّا اسْتَوْلَى عَلَى نُفُوسِ الْإِخْوَةِ الْأَعِزَّاءِ مِنَ الْبَهْجَةِ، بِمَا كَشَفُوهُ مِنْ سِرِّ هَذِهِ الدُّمُوعِ الزُّجَاجِيَّةِ، وَمَا عَرَفُوهُ مِنْ عَجِيبِ تَكْوِينِهَا.

الْفَصْلُ الثَّامِنُ

أُسْطُورَةُ «الْبُنْدُقِيَّةِ»

بَقِيَ عَلَى الْأُسْرَةِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَشْهَدَ صُنْعَ الْمَرَايَا.

وَلَمْ تَغِبْ عَنْ مُدِيرِ الْمَصْنَعِ هَذِهِ الرَّغْبَةُ فَفَاجَأَهُمْ بِتَحْقِيقِهَا قَبْلَ أَنْ يَطْلُبُوهَا مِنْهُ، وَأَدْخَلَهُمُ الْحُجْرَةَ الْخَاصَّةَ بِصُنْعِ الْمَرَايَا.

وَمَا إِنِ اسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمُقَامُ حَتَّى قَالَ: «هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تَرَوْنَ أَمَامَكُمْ مَائِدَةً مِنَ الزَّهْرِ، مَصْنُوعَةً مِنْ قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ، وَسَطْحُهَا مُنْبَسِطٌ مُتَّحِدٌ، وَطُولُهَا يَتَرَجَّحُ بَيْنَ خَمْسَةٍ مِنَ الْأَمْتَارِ وَسِتَّةٍ، وَعَرْضُهَا ثَلَاثَةُ أَمْتَارٍ».

فَقَالَ «ثَرْوَةُ»: «مَا أَكْبَرَهَا مَائِدَةً! إِنَّ مَنْ يَرَاهَا لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمَوَائِدِ، وَلَيْسَتْ مَائِدَةً وَاحِدَةً.»

فَقَالَ الْمُدِيرُ: «لَا تَنْسَ أَنَّ ثَمَنَهَا بَاهِظٌ جِدًّا، وَهَذِهِ الْمَوَائِدُ — كَمَا تَرَوْنَهَا — مَوْضُوعَةٌ عَلَى مَرْكَبَاتٍ ذَاتِ أَرْبَعِ عَجَلَاتٍ، وَلَهَا قُضْبَانٌ تُيَسِّرُ اقْتِرَابَ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، لِيَتَهَيَّأَ لَهَا الدُّنُوُّ مِنَ الْبَوَاتِقِ الْمُعَدَّةِ فِي هَذِهِ الْأَفْرَانِ.

انْظُرُوا: هَا هُمْ أُولَاءِ يُمْسِكُونَ بِمَقَابِضَ قَوِيَّةٍ، يُخْرِجُونَ بِهَا بَوْتَقَةً مِنَ الْفُرْنِ، حَيْثُ تَرْفَعُهَا إِلَى الْمَائِدَةِ رَافِعَةٌ (وِنْشٌ)، فَيُسْرِعُ الْعُمَّالُ إِلَى صَبِّهَا.

وَمَتَى فَرَغَتِ الْبَوْتَقَةُ، بَدَأَ الْعَمَلُ بِأُسْطُوَانَةٍ تَبْسُطُ كُتْلَةَ الزُّجَاجِ، وَتَجْعَلُهَا عَلَى الْمَائِدَةِ فِي ثَخَانَةٍ مُتَسَاوِيَةٍ. وَمَتَى أَنْجَزُوا هَذَا الْعَمَلَ، وُضِعَتِ الْمِرْآةُ فِي فُرْنِ التَّبْرِيدِ، ثُمَّ تُهَذَّبُ بَعْدَ أَيَّامٍ بِوَاسِطَةِ سُنْبَاذَجٍ (حَجَرِ مِسَنٍّ: Eméri) غَايَةٍ فِي النُّعُومَةِ، ثُمَّ تُنَظَّفُ وَتُصْقَلُ، وَقَدْ كَانَتْ مَدِينَةُ «الْبُنْدُقِيَّةِ» تَمْتَازُ مِنْ قَبْلُ بِأَجْمَلِ طَرَائِفِ الزُّجَاجِ، وَأَفْخَرِ أَنْوَاعِ الْمَرَايَا.»

– كَانَ الْأُسْتَاذُ يُحَدِّثُنَا عَنْ مَدِينَةِ «الْبُنْدُقِيَّةِ» فِي عُهُودِهَا الْغَابِرَةِ الزَّاهِرَةِ. ثُمَّ جَرَّهُ الْحَدِيثُ عَنْ بَرَاعَةِ أَهْلِهَا فِي صِنَاعَةِ الزُّجَاجِ وَالْمَرَايَا، فَقَالَ: «إِنَّ أَحَدَ كُبَرَاءِ مَمْلَكَةِ «بُوهِمْيَا» يُدْعَى «كُنْرَادَ» قَدِ اهْتَدَى إِلَى أَسْرَارِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ، فَنَقَلَهَا إِلَى بِلَادِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا الصُّنَّاعُ حَتَّى بَلَغُوا بِهَا دَرَجَةً عَظِيمَةً مِنَ الْإِتْقَانِ وَالْإِبْدَاعِ.»

فَقَالَ الْمُدِيرُ: «لَقَدْ عَاشَ هَذَا النَّابِغَةُ فِي الْقَرْنِ السَّادِسَ عَشَرَ، فِي عَهْدِ الْإِمْبرَاطُورِ «فِرْدِنَنْدَ الْأَوَّلِ».»

وَكَانَتْ أُسْرَتُهُ تَجْمَعُ بَيْنَ مَوْفُورِ الْغِنَى وَالنُّفُوذِ وَالْجَاهِ، فَلَمَّا نَشِبَتْ حَرْبُ «أَلْمَانْيَا» أَفْلَسَتْ وَخَرِبَتْ.

وَكَانَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِمَّا بَقِيَ لَهُ مِنْ مِيرَاثِ أَهْلِهِ قَصْرُ الْكُونْتِ «لَادِيسْلَاسَ»، وَكَانَ مَعْرُوفًا بَيْنَ النَّاسِ بِأَنَّهُ مِنَ الْبُخَلَاءِ الْمُفْرِطِينَ فِي الْحِرْصِ.

وَكَانَ «كُنْرَادُ» مُرْتَبِطًا بِأُسْرَةِ هَذَا الْبَخِيلِ بِرِبَاطِ الْقَرَابَةِ، فَخَطَبَ «بِرْتَا»: بِنْتَ عَمِّهِ الْكُونْتِ.

وَكَانَ «كُنْرَادُ» وَ«بِرْتَا» قَدْ تَرَبَّيَا — مُنْذُ طُفُولَتِهِمَا — مَعًا، وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ أُمَّاهُمَا تَتَحَدَّثَانِ عَنْ قِرَانِهِمَا عِنْدَمَا يَكْبَرَانِ، وَلَكِنَّ الْعَمَّ الْغَنِيَّ رَفَضَ طَلَبَ ابْنَ أَخِيهِ الْفَقِيرِ، وَقَالَ لَهُ فِي صَلَفٍ وَكِبْرِيَاءَ: «هَيْهَاتَ أَنْ أُزَوِّجَ ابْنَتِي إِلَّا لِغَنِيٍّ يَمْتَلِكُ مِثْلَ ثَرْوَتِي.»

وَكَانَتْ صَدْمَةً مُفَاجِئَةً، فَلَمْ يَدْرِ الْفَتَى كَيْفَ يَسْتَطِيعُ فِي بِضْعِ سَنَوَاتٍ أَنْ يَجْمَعَ ثَرْوَةً تَعْدِلُ ثَرْوَةَ عَمِّهِ الطَّائِلَةَ.

فَوَدَّعَ ابْنَةَ عَمِّهِ «بِرْتَا» مُتَأَلِّمًا مَحْزُونًا، مُؤَمِّلًا أَنْ يُنْسِيَهُ الْبُعْدُ آلَامَ الْخَيْبَةِ.

وَلَكِنَّ ابْنَةَ عَمِّهِ بَعَثَتْ فِي نَفْسِهِ كِبَارَ الْآمَالِ، وَأَشْعَرَتْهُ أَنَّهَا وَاثِقَةٌ بِعَوْدَتِهِ مَوْفُورَ الْغِنَى؛ فَشَكَرَ لَهَا ثِقَتَهَا بِهِمَّتِهِ، وَسَافَرَ إِلَى «إِيطَالْيَا»، وَكَانَتْ فِي ذَلِكَ الْحِينِ بَلَدًا مَعْرُوفًا بِرِجَالِ الصِّنَاعَةِ وَأَبْطَالِ الْفُنُونِ.

فَأَيْقَنَ أَنَّهُ سَيَجِدُ تَحْقِيقَ أَحْلَامِهِ فِي مَدِينَةِ «الْبُنْدُقِيَّةِ» مَتَى حَذَقَ صِنَاعَةَ الزُّجَاجِ فِيهَا، وَعَرَفَ سِرَّهَا وَاسْتَثْمَرَهَا، بَعْدَ أَنْ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ مَنْ زَاوَلَ هَذِهِ الصِّنَاعَةَ ظَفِرَ بِثَرْوَةٍ طَائِلَةٍ، وَسَجَّلَ اسْمَهُ فِي الْكِتَابِ الذَّهَبِيِّ.

وَمَا إِنْ وَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ «الْبُنْدُقِيَّةِ» حَتَّى رَآهَا حَرِيصَةً عَلَى سِرِّ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَشَدَّ الْحِرْصِ، ضَنِينَةً بِهِ أَشَدَّ الضَّنِّ، لَا تَسْمَحُ لِغَرِيبٍ أَنْ يُزَاوِلَهَا، كَمَا لَا تَسْمَحُ لِأَحَدٍ مِمَّنْ يُزَاوِلُهَا أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجَزِيرَةِ الَّتِي حَصَرَتِ الصُّنَّاعَ فِيهَا.

وَكَانَتْ تَبُثُّ حَوْلَهُمُ الْعُيُونَ وَالْأَرْصَادَ، وَتَحْظُرُ أَنْ تُصَدَّرَ إِلَى الْخَارِجِ الْمَوَادُّ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي صِنَاعَةِ الزُّجَاجِ، كَمَا تَحْظُرُ تَصْدِيرَ شَيْءٍ مِنَ الزُّجَاجِ الْمَكْسُورِ؛ حَتَّى لَا يَسْتَرْشِدَ بِهِ أَحَدٌ مِمَّنْ يَسْعَوْنَ إِلَى سَرِقَةِ أَسْرَارِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ.

وَكَانَ «كُنْرَادُ» — لِحُسْنِ حَظِّهِ — يُجِيدُ الْإِيطَالِيَّةَ، وَيُحْسِنُ الْكَلَامَ بِهَا كَمَا يُحْسِنُهَا أَهْلُوهَا، فَسَهُلَ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ أَكْبَرَ مَصَانِعِ الْجَزِيرَةِ، دُونَ أَنْ يَرْتَابَ أَحَدٌ فِي أَنَّهُ إِيطَالِيٌّ، ثُمَّ عَكَفَ عَلَى دَرْسِ صِنَاعَةِ الزُّجَاجِ وَالْبَلُّورِ فِي نَشَاطٍ وَمُثَابَرَةٍ وَاجْتِهَادٍ، حَتَّى عَرَفَ الْمَوَادَّ الَّتِي يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي صُنْعِ الْمَرَايَا. وَكَانَتْ بِضَاعَةً مَرْغُوبًا فِيهَا أَشَدَّ الرَّغْبَةِ، يَتَهَافَتُ عَلَيْهَا النَّاسُ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ «أُورُوبَّةَ».

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَعَانَتْهُ رَغْبَتُهُ وَتَوَقُّدُ ذِهْنِهِ وَبُعْدُ هِمَّتِهِ عَلَى النَّجَاحِ؛ فَمَهَرَ فِي صِنَاعَةِ الزُّجَاجِ مُلَوَّنًا وَغَيْرَ مُلَوَّنٍ.

وَلَمَّا أَتْقَنَ أَنْوَاعَ الزُّجَاجِ الْبُنْدُقِيِّ وَبَرَعَ فِي صُنْعِهَا، خَطَرَتْ لَهُ فِكْرَةٌ نَاجِحَةٌ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «هَذِهِ صِنَاعَةٌ مَجْهُولَةٌ فِي بِلَادِي، بِلَا رَيْبٍ. وَسَتَكُونُ لِي مَوْرِدَ ثَرْوَةٍ طَائِلَةٍ. وَمِنْ وَاجِبِي أَنْ أُطْلِعَ إِمْبَرَاطُورَ «أَلْمَانْيَا» عَلَى أَسْرَارِهَا، سَيَكُونُ فِي ذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ لِـ «بُوهِمْيَا.»

وَلَنْ تَلْبَثَ هَذِهِ الصِّنَاعَةُ أَنْ تَرْفَعَنِي إِلَى مَصَافِّ الْأَغْنِيَاءِ، وَتُكْسِبَنِي احْتِرَامَ عَمِّي الْكُونْتِ لادِيسْلاسَ.»

وَصَحَّتْ عَزِيمَتُهُ عَلَى أَنْ يَعُودَ إِلَى بِلَادِهِ، وَظَلَّ يَبْحَثُ عَنِ الْوَسِيلَةِ الَّتِي يُغَادِرُ بِهَا أَرْضَ «الْبُنْدُقِيَّةِ»، وَيَصِلُ إِلَى حُدُودِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ النِّمْسَاوِيَّةِ.

وَلَكِنَّ جَمِيعَ شَوَاطِئِ بَحْرِ «الْإِدْرِيَاتِيكِ» الَّتِي تُحِيطُ بِالْبُنْدُقِيَّةِ كَانَتْ سَاهِرَةً عَلَى حِمَايَةِ صِنَاعَتِهَا، حَيْثُ تَمْتَدُّ سُفُنُ الْحِرَاسَةِ، فَلَا تَدَعُ مَرْكَبًا يَمُرُّ إِلَّا فَتَّشَتْهُ أَدَقَّ تَفْتِيشٍ …

وَلَكِنَّ «كُنْرَادَ» الْبَارِعَ رَسَمَ لِفِرَارِهِ خُطَّةً أَحْكَمَ تَدْبِيرَهَا، فَاتَّخَذَ لَهُ صَيَّادًا بُنْدُقِيًّا يُسَاعِدُهُ عَلَى إِنْجَاحِهَا، وَاصْطَحَبَ نُوتِيًّا فِي زَوْرَقِهِ.

وَقَدْ نَجَحَتْ خُطَّتُهُ، فَوَصَلَ إِلَى «تِرْيِسْتَا» حَيْثُ سَافَرَ إِلَى «فِينَّا»، وَلَقِيَ مِنْ تَشْجِيعِ الْإِمْبَرَاطُورِ «فِرْدِنَنْدَ الْأَوَّلِ» مَا هُوَ جَدِيرٌ بِهِ مِنَ الرِّعَايَةِ وَالتَّكْرِيمِ.

وَكَانَ الْإِمْبَرَاطُورُ مَعْنِيًّا بِنَهْضَةِ الْآدَابِ وَالْفُنُونِ، حَرِيصًا عَلَى حِمَايَةِ الْمَوْهُوبِينَ وَالْأَخْذِ بِنَاصِرِهِمْ؛ فَمَنَحَ الْفَتَى ثَرْوَةً طَائِلَةً يُنْشِئُ بِهَا مَصْنَعًا لِلزُّجَاجِ فِي «بُوهِمْيَا». وَلَمْ يَمْضِ عَلَى إِنْشَاءِ الْمَصْنَعِ زَمَنٌ قَلِيلٌ حَتَّى صَارَ مِنْ أَكْبَرِ مَصَانِعِ الزُّجَاجِ، وَأَتَمِّهَا عُدَّةً، وَأَوْفَرِهَا إِنْتَاجًا، وَأَبْرَعِهَا فَنًّا.

وَارْتَقَى «كُنْرَادُ» بِصِنَاعَةِ الزُّجَاجِ، وَزَادَ فِي تَحْسِينِهَا حَتَّى فَاقَتْ صِنَاعَةَ الزُّجَاجِ فِي «الْبُنْدُقِيَّةِ» وَصَاحَبَهُ التَّوْفِيقُ، فَاخْتَرَعَ نَوْعًا جَدِيدًا مِنَ الزُّجَاجِ أَجْمَلَ مِمَّا عَرَفَهُ النَّاسُ، وَهُوَ مَا نَعْرِفُهُ الْآنَ بِاسْمِ: زُجَاجِ «بُوهِمْيَا». وَقَدْ آثَرَهُ النَّاسُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَفَضَّلُوهُ عَلَى غَيْرِهِ، لِمَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ خِفَّةٍ وَبَرِيقٍ وَنُعُومَةٍ وَشُفُوفٍ.

وَنَالَ «كُنْرَادُ» أَسْمَى أَلْقَابِ النُّبْلِ، فَعُيِّنَ وَزِيرًا لِقَصْرِ الْإِمْبَرَاطُورِ، وَظَفِرَ فِي زَمَنٍ قَلِيلٍ بِثَرْوَةٍ طَائِلَةٍ، كَمَا تَكَهَّنَتْ لَهُ ابْنَةُ عَمِّهِ «بِرْتَا». وَكَانَ عَمُّهُ سَعِيدًا بِمَا ظَفِرَ بِهِ ابْنُ أَخِيهِ مِنْ نَجَاحٍ وَثَرْوَةٍ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ فَخُورًا بِهِ، بَعْدَ أَنْ صَدَّ عَنْهُ مِنْ قَبْلُ، مُزْدَرِيًا لَهُ.

وَكَانَ ثَبَاتُ الْفَتَى وَمَهَارَتُهُ، وَصَبْرُهُ وَمُثَابَرَتُهُ، وَاضْطِلَاعُهُ بِمَا يَتَطَلَّبُهُ النَّجَاحُ مِنْ تَكَالِيفَ مُرْهِقَةٍ، إِلَى مَا وَهَبَهُ اللهُ مِنْ إِرَادَةٍ لَا تُغْلَبُ، وَعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ، كَفِيلَةً بِتَذْلِيلِ مَا اعْتَرَضَهُ مِنْ عَقَبَاتٍ، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ وَصَلَتْ بِهِ إِلَى أَبْعَدِ الْغَايَاتِ.

وَبَعْدَ أَنْ سَمِعَ «صَفَاءٌ» وَأُسْرَتُهُ هَذِهِ الْقِصَّةَ الطَّرِيفَةَ، اسْتَأْذَنُوا الْمُدِيرُ فِي الِانْصِرَافِ، شَاكِرِينَ لَهُ حُسْنَ مُقَابَلَتِهِ إِيَّاهُمْ.

وَقَالَ لَهُ «ثَرْوَةُ» قَبْلَ أَنْ يُوَدِّعَهُ:

«لَقَدْ أَلْقَيْتَ عَلَيْنَا الْيَوْمَ — يَا سَيِّدِي الْمُدِيرَ — دَرْسًا فِي صِنَاعَةِ الزُّجَاجِ، لَا نَنْسَاهُ مَدَى الْحَيَاةِ.

وَقَدْ جَلَوْتَ لَنَا مَا غَمَضَ مِنَ الدَّقَائِقِ، فَأَصْبَحْنَا بِفَضْلِ مَا عَلَّمْتَنَا نَعْرِفُ الْكَثِيرَ عَنِ الزُّجَاجِ، الَّذِي نَنْتَفِعُ بِهِ، دُونَ أَنْ نُفَكِّرَ فِي تَارِيخِهِ، وَفَضْلِ مُخْتَرِعِيهِ، وَبَرَاعَةِ صَانِعِيهِ.»

مَحْفُوظَاتٌ

قَدَحُ الْبَلُّورِ

قَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ:

وَبَدِيعٍ مِنَ الْبَدَائِعِ يَسْبِي كُلَّ عَقْلٍ، وَيَطَّبِي كُلَّ طَرْفِ[1]
وُفِّيَ الْحُسْنَ وَالْمَلَاحَةَ حَتَّى مَا يُوَفِّيهِ وَاصِفٌ حَقَّ وَصْفِ[2]
صِيغَ مِنْ جَوْهَرٍ مُصَفًّى طِبَاعًا لَا عِلَاجًا بِكِيمِيَاءِ مُصَفِّ[3]
تَنْفُذُ الْعَيْنُ فِيهِ حَتَّى تَرَاهَا أَخْطَأَتْهُ مِنْ رِقَّةِ الْمُسْتَشَفِّ[4]
كَهَوَاءٍ بِلَا هَبَاءٍ، مَشُوبٍ بِضِيَاءٍ. أَرْقِقْ بِذَاكَ وَأَصْفِ[5]

---

١ يَسْبِي كُلَّ عَقْلٍ: يُقَيِّدُهُ وَيَأْسِرُهُ بِحُبِّهِ.
يَطَّبِي كُلَّ طَرْفٍ: يَسْتَمِيلُ كُلَّ عَيْنٍ.

٢ كَمُلَتْ مَحَاسِنُهُ، وَاسْتَوْفَى شَرَائِطَ الْجَمَالِ وَالْمَلَاحَةِ، حَتَّى أَعْجَزَ وَاصِفِيهِ عَنْ وَصْفِهِ.

٣ يَعْنِي: أَنَّ حُسْنَهُ أَصِيلٌ، غَيْرُ مُسْتَجْلَبٍ وَلَا دَخِيلٍ، لِأَنَّهُ آتٍ مِنْ طَبِيعَةِ جَوْهَرِهِ وَصَفَاءِ مَعْدِنِهِ، وَلَمْ يَأْتِ مِنْ مَوَادِّ الْكِيمِيَاءِ الَّتِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا الصَّانِعُ لِيُكْسِبَهُ الصَّفَاءَ، وَيَنْحَلَهُ مِنَ الْمَزَايَا مَا قَصَرَ عَنْ بُلُوغِهَا بِطَبْعِهِ.

٤ الْمُسْتَشَفُّ: الْمَوْضِعُ الَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ، فَتَرَى مَا وَرَاءَهُ. يَعْنِي: أَنَّ الْعَيْنَ تَنْفُذُ فِي زُجَاجِ الْكُوبِ وَتَرَى مَا وَرَاءَهُ، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهَا أَنَّ زُجَاجَهُ لَمْ يَعْتَرِضْهَا لِصَفَائِهِ وَرِقَّةِ شُفُوفِهِ.

٥ الْهَبَاءُ: الْغُبَارُ: دِقَاقُ التُّرَابِ سَاطِعَةً وَمَنْثُورَةً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. يَعْنِي أَنَّ الْكُوبَ كَانَ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِهَوَاءٍ خَالِصٍ مِنْ شَوَائِبِ الْغُبَارِ، مُشَعْشَعٍ بِالْأَضْوَاءِ وَالْأَنْوَارِ.

وَسَطَ الْقَدْرِ، لَمْ يُكَبَّرْ لِجَرْعِ مُتَوَالٍ، وَلَمْ يُصَغَّرْ لِرَشْفِ[٦]
فِيهِ لَوزٌ مُهَلَّلٌ عَطَفَتْهُ حُكَمَاءُ الْقُيُونِ، أَحْسَنَ عَطْفِ[٧]
ذَخَرَتْهُ لَكَ الْعَوَاقِبُ عِنْدِي يَتَخَطَّاهُ كُلُّ حَيْنٍ وَحَتْفِ[٨]
فَتَمَتَّعْ بِهِ، وَعِشْ فِي سُرُورٍ أَلْفَ عَامٍ، وَلَسْتُ أَرْضَى بِأَلْفِ![٩]

---

[٦] الْجَرْعُ: شُرْبُ الشَّيْءِ بِمَرَّةٍ. وَالرَّشْفُ عَلَى الْعَكْسِ مِنْهُ: التَّأَنِّي فِي حَسْوِهِ (شُرْبِهِ قَلِيلًا قَلِيلًا). يَعْنِي: أَنَّ حَجْمَهُ كَانَ وَسَطًا، لَا هُوَ بِالْكَبِيرِ يَعُبُّ مِنْهُ الشَّارِبُ (كَمَا يَعُبُّ مِنَ الْكُوزِ)، وَلَا هُوَ بِالصَّغِيرِ الَّذِي يَرْتَشِفُ مِنْهُ (كَمَا يَرْتَشِفُ مِنَ الْفِنْجَانَاتِ).

[٧] لَوْزٌ مُهَلَّلٌ: لَوْزٌ مُتَقَوِّسٌ.

حُكَمَاءُ الْقُيُونِ: الْمَهَرَةُ مِنَ الصُّنَّاعِ.

[٨] ذَخَرَتْهُ: خَبَأَتْهُ لِوَقْتِ الْحَاجَةِ.

الْعَوَاقِبُ: وَاحِدَتُهَا عَاقِبَةٌ، وَهِيَ مَا يُجْزَى بِهِ الْمُحْسِنُ مِنْ خَيْرٍ عَلَى إِحْسَانِهِ. الْحَيْنُ: الْمِحْنَةُ أَوِ الْهَلَاكُ. وَالْحَتْفُ: الْهَلَاكُ.

يَرَى الشَّاعِرُ: أَنَّ قَدَحَ الْبَلُّورِ كَانَ مِنَ الْمُكَافَآتِ الَّتِي خَصَّ اللهُ بِهَا صَاحِبَهُ، لِمَا أَسْلَفَهُ مِنْ خَيْرٍ، وَسَيَبْقَى سَلِيمًا مِنَ السُّوءِ، نَاجِيًا مِنَ الْعَطَبِ، بِمَا أَسْدَاهُ مِنْ صَنَائِعِ الْمَعْرُوفِ.

[٩] يَدْعُو أَنْ تَطُولَ حَيَاةُ صَاحِبِهِ، مُمَتَّعًا بِقَدَحِ الْبَلُّورِ، أَلْفَ سَنَةٍ، وَهِيَ — فِيمَا يَرَاهُ — قَلِيلَةٌ يَتَمَنَّى لِصَاحِبِهِ أَنْ تُزَادَ.


هنداوي